كتاب
التنبيه
على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين
في
آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم

تصنيف

الفقيه الفاضل ابي محمد بن عبد الله البطليوسي المتوفى ٥٢١ هجرية

تحقيق وتعليق

الدكتور احمد حسن كحيل
الدكتور حمزة عبد الله النشرتي

الطبعة الأولى
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله ، وأصلي وأسلم على من اصطفاه واجتباه ، وأرسله الله هادياً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وعلى آله وصحبه الأئمة الهداة ، الذين آمنوا به وآزروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه .

وبعد . . فإن الخلاف بين الناس فى الآراء ، والمعتقدات أمر طبعى . فما دام الناس يختلفون فى ألوانهم وألسنتهم وطبائعهم وطرق معايشهم وفى البيئة التى يحيون فيها ، وفى الثقافة التى ينهلون منها ، فإنهم لا شك يختلفون فى آرائهم وتفكيرهم . وذلك يرجع إلى :

اختلاف المدارك والعقول . إذ من المدارك والعقول ما ينفذ إلى صميم الأشياء ويصل إلى حقيقتها . ومنها ما يظل طافيا على السطح لا يدرك من الأشياء إلا ظواهرها . ومنها ما يشغل عن الحقيقة بالخيال والأوهام ، فيصده ذلك عن إدراك حقيقة الأشياء أو جزء منها .

وقد يرجع إلى الرغبة فى السلطة وحب الرئاسة والعصبيات القومية أو الإقليمية أو العنصرية . فإن الآراء حينئذ تكون منبعثة من الرغبات الخاصة التى لا تتفق مع الحق والعدل ، وهذه أمور تفسد الآراء ، وتبعد أصحابها عن الحق .

وقد يكون الاختلاف فى الرأى راجعاً إلى غموض الأمر الذى هو محل النظر ، وصعوبته ، فكل ينظر إليه من جانب على حسب ما يقع عليه نظره ، أو حسب ما يهديه تفكيره .

وقد يرجع الاختلاف فى الرأى إلى اختلاف الرغبات والشهوات ، إذ الرغبة فى الشيء والشهوة له ترينا الأشياء على غير حقيقتها ،

فترينا الشيء جميلا حبيباً إلى القلب ، وإن كان فى مقياس العقل البعيد عن المؤثرات لا وزن له .

وقد يكون الباعث على الاختلاف اختلافهم فى مناهجهم العلمية . فإنه إذا اختلفت المناهج العلمية اختلفت النتائج المترتبة عليها ، ومن ذلك الاختلاف بين الفقهاء وعلماء الكلام فى موضوع خلق القرآن فإن الاختلاف بينهم كان سببه الاختلاف فى المنهج ، فالفقهاء يستمدون أقيستهم من القرآن والسنة ، وعلماء الكلام يعتمدون على الأقيسة العقلية المجردة(١) .

هذا وقد يكون مبعث الخلاف التقليد ، والتعصب لآراء الأقدمين ، وجعلها بمثابة لا يجوز مخالفتها ولا الحيد عنها ، ولعل هذا من أكبر أسباب الخلاف ، ولذلك نرى القرآن الكريم ينعى على المخالفين للحق تقليدهم للآباء (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين(٢)) (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين(٣)) .

هذا عن الخلاف بين الناس عامة . أما الاختلاف بين أئمة المسلمين وعلمائهم وقادتهم فكانت له أسباب خاصة نعرضها فيما يلى :

الاختلاف بين المسلمين

بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والعرب متنافرون متدابرون ، لا تجمعهم جامعة كأنهم ذرات الرمال ، فجمعهم الله على الحق والهدى بالإسلام ، وألف بين قلوبهم بالإيمان ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا متحابين ، لا عصبية تفرقهم ، ولا حزبية تشتت جمعهم ، ولا خلاف بينهم فى رأى ، إن عنت لهم شبهة ، أو بدت

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٦
(٢) الأعراف ٧٠ .
(٣) يونس ٧٨

لهم مشكلة ، لجأوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجلا لهم الشبهة ، ووضح المشكل ، ونزل الوحي يبين ويوضح ، ويعلم .

وهكذا مضى عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والشمل مجتمع ، والرأى مؤتلف ، فلم يظهر خلاف فى الرأى ، ولا فى شأن من شئون الدين والعقيدة إلا ما عرف من الخلاف فى غنائم بدر وفى أسرارها ، ولكن الوحي حسم هذا الخلاف .

ولم يقبض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلا بعد أن بين للمسلمين المحجة الواضحة ، وترك فيهم ما إن تمسكوا به لم يضلوا أبداً : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولكن بعد وفاة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بدأ الخلاف فى الرأى يظهر بين صفوف المسلمين ، خلاف فى السياسة وفى العقيدة وفى الفقه .

أما فى السياسة فقد بدأ هينا لينا بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة ، ولكنه حسم بفضل حنكة أبى بكر ، وحزم عمر ، وقوة إيمان الأنصار رضى الله عنهم أجمعين .

وظلت وحدة المسلمين قوية طيلة عهد أبى بكر ، وعمر ، وفى آخر عهد ذى النورين : عثمان بن عفان بدأت العصبية العربية التى أخمد جذوتها الإسلام تورى ناراً ثم اشتعلت بعد استشهاد عثمان ، وزاد من حدة الخلاف التنافس على الخلافة ، فتحطمت وحدة الأمة وانقسمت إلى شيع وأحزاب : أمويين وهاشميين ، وخوارج ، ثم عباسيين وعلويين . وقامت بينها حروب مدمرة ، ومذابح رهيبة ذهب ضحيتها كثير من الصحابة والتابعين وقادة المسلمين وأولى الرأى فيهم ، مما عوق حركة الدعوة الإسلامية ، وشد أزر أعدائها !! ذلك كله من أثر العصبية القبلية ، والتنافس على الخلافة والسلطان .

أما اختلاف الرأى فى العقيدة فقد بدأ بعد امتداد الفتوح الإسلامية ،

ودخول أهل الحضارات والديانات القديمة فى الإسلام ، ولا سيما الفرس فهؤلاء كانت لهم دولة وسلطان امتد حتى شمل أجزاء من الجزيرة العربية ، وكانت دولتهم إحدى دولتين تتقاسمان العـالم – إذ ذاك – نفوذاً . فلما جاء الإسلام حطم دولتهم ، وبسط سيطرته عليهم ، وبذلك خضعوا للعرب الذين كانوا يسودونهم .

فكان من أثر ذلك أن دخل بعضهم الإسلام مخلصين ، ولكنهم يطوون قلوبهم على بقايا من معتقدات وأفكار الديانات القديمة ، فكانوا يعتقدون الإسلام ، ويفسرون تعاليمه متأثرين بهذه المعتقدات خاضعين لسلطانها ، فأثاروا كثيراً من المشكلات مثل الجبر والاختيار ، وتساءلوا هل العبد مخير أو مجبر ؟؟ . وصفات الله أهى شىء غير الذات أم هى والذات شىء واحد ؟؟

وبجانب هذا الفريق المخلص فى إسلامه دخل أفواج منهم الإسلام ، وقلوبهم تفيض حقداً وبغضاً للإسلام والمسلمين ، وما دخلوا إلا للكيد له وتدميره من داخله .

فتظاهروا بالصلاح والتقوى ، وحب آل الرسول – صلى الله عليه وسلم – حتى وثق فيهم العامة واطمأن إليهم الخاصة فبدأوا ينشرون الشبه التى تشكك الناس فى عقيدتهم ، ويبثون الأفكار المضللة للعقول . والمذاهب المنحرفة عن الحق التى تذهب بصفاء العقيدة الإسلامية ونقائها ، وشوهوا جمال الإسلام بما أقحموه عليه من بدع وخرافات ، فكان منهم المتشيعون ، والمتصوفة ، والمجسمة ، والمعتزلة ، وغير هؤلاء .

ولقد كان للفلسفة دور كبير فى هذا الاختلاف ، فبعد أن ترجمت كتبها – ولا سيما فى عصر المأمون – أحدثت أثراً كبيراً فى الفكر الإسلامى ، فظهر بين علماء المسلمين من تكلم فى المـادة ، وما وراء الطبيعة ، ومن جارى فلاسفة اليونان وقال بالعقول العشرة ، ومن تجرأ وخاصة فى مسائل ليس فى استطاعة العقل البشرى أن يصل إلى رأى

ثابت فيها أو حقيقة مقررة ، مثل قدرة العبد وإثبات صفات الله ونفيها ، كما ظهر بين المسلمين من نزع منزع السوفسطائية فى الشك .

هذا عن الاختلاف فى العقيدة ، أما الاختلاف فى الفقه فقد حدث بعد وفاة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وانقطاع الوحى .

إذ كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين كان بين ظهرانيهم يبين للمسلمين ما عمى عليهم ، ويفتيهم فيما يعن من أحداث ، فلما قبض وانقطع الوحى ، وامتدت الفتوح ، وجدت أحداث ليس فى القرآن ولا السنة نص عليها كان لا بد للخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الاجتهاد ، واستنباط الأحكام لهذه الأحداث والوقائع . ومن هنا نشأ الاختلاف ، مثل الاختلاف الذى حدث بين أبى بكر وعمر — رضى الله عنهما — فى قتال مانعى الزكاة . واختلاف الصحابة فى قتل الجماعة بالواحد ، وفى توريث الأخوة مع الجد ، واختلف عثمان وزيد بن ثابت وعلى فى عبد زوج حرة . هل يعتبر حال الزوج فيكون أقصى طلاقها طلقتين . بهذا قال الأولان . أو يعتبر حال الزوجة فيكون أقصى طلاقها ثلاثاً وبذلك قال على .

وصار كلما مضى الزمن وامتدت الفتوح وبعد العهد بعصر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كثرت الأحداث ، والوقائع ، فكثر الاجتهاد وكثر الخلاف .

وقد تفرق أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الأمصار يحملون القرآن الكريم والحديث الشريف فكان بعضهم يحمل من الحديث ما لا يحمل الآخر أو شاهد من الوقائع مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما لم يشاهد الآخر فتقع الحادثة وليس عند صحابى نص عليها فيجتهد ويفتى بناء على اجتهاده ، بينما يوجد نص عليها عند صحابى آخر فى قطر آخر . ومن هنا أخذ الخلاف يتسع بالإضافة إلى الأسباب الأخرى التى هى موضوع هذا الكتاب الذى نقدم له .

ونحب هنا أن نؤكد على حقيقتين هامتين :

الحقيقة الأولى : إن هذا الخلاف مهما كان نوعه ولونه لم يمس جوهر الدين ولا أساس العقيدة فلم يكن الخلاف فى وحدانية الله ، ولا فى أن محمدا رسول الله ، ولا فى ركن من أركان الإسلام ، ولا فى أصل من الأصول العامة ، وإنما كان فى أمور فرعية لا تمس صميم العقيدة ولا ركنا من أركان الدين ولا أصلا من أصوله . وإذا كانت قد ظهرت آراء تمس العقيدة ، فقد تبرأ العلماء منها ومن معتنقيها ، ونفوهم عن حظيرة الإسلام ، مثل طائفة السبئية التى كانت تعتقد حلول الله فى على ، وطائفة أخرى من الشيعة هى الغرابية ، فكانت تعتقد أن الرسالة كانت لعلى ، ولكن جبريل أخطأ ونزل على محمد — صلى الله عليه وسلم — وقد أجمع المسلمون على أن هاتين الطائفتين ليستا من أهل الإسلام .

الحقيقة الثانية : أن بعض هذا الخلاف — وهو الخلاف فى السياسة وفى بعض العقائد — كان شراً على الإسلام والمسلمين ، فقد عوق الدعوة الإسلامية ، وشل حركتها ، وصرف الناس عنها ، وأخر الإسلام أجيالا ، ولولا هذا الخلاف لدانت الدنيا كلها للإسلام ولامتدت أشعته إلى جميع الكهوف والمغارات المظلمة فبددت ظلامها وأصبحت راية الإسلام والتوحيد ترفرف على المعمورة ، وهذا الخلاف هو ما كان يخافه الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويحذر منه .

أما الخلاف فى الفقه والأحكام الشرعية فلا نعتقد أنه كان شراً ، بل كان فيه خير كثير ، فقد أثرى الشريعة الإسلامية ، وجعل لكل حادثة حكما مستنبطاً يقول الشيخ أبو زهرة — رضى الله عليه : « وإذا كان الافتراق حول العقائد فى جملته شراً ، فإنه يجب أن نقرر أن الاختلاف الفقهى فى غير ما جاء به نص من الكتاب والسنة لم يكن شراً ، بل كان دراسة عميقة لمعانى الكتاب والسنة ، وما يستنبط منهما من أقيسة ، ولم يكن افتراقاً ، بل كان خلافا فى النظر ، وكان يستعين كل فقيه بأحسن ما وصل إليه الفقيه الآخر ، ويوافقه أو يخالفه .

وكان عمر بن عبد العزيز يسره اختلاف الصحابة فى الفروع ويقول : «ما أحب أن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يختلفون لأنه لو كان قولا واحداً لكان الناس فى ضيق ، وإنهم كانوا أئمة يقتدى بهم ، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة(١) » .

التأليف فى أسباب الاختلاف :

عنى المؤرخون وكتاب السير بالخلافات السياسية وتحليل أسبابها وتفصيل بواعثها وغاياتها .

أما الاختلافات الفقهية والعقائدية فكانت أسبابها تذكر خلال مسائل الأصول أو فى ثنايا كتب التفسير والحديث مبعثرة ، وقليل من الفقهاء من أفردها بتأليف ونسقها ونظم عقدها .

وكان من الأوائل الذين فطنوا لذلك علم من أعلام التراث الإسلامى فى الفقه واللغة وهو أبو محمد عبد الله المعروف بابن السيد البطليوسى مؤلف هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء . فهو كما يتبين من مقدمته من أوائل من ألفوا فى هذا الفن ، وأنه أخرجه فى صورة مبتكرة كأنه مخترع ، وليس بمخترع ، يقول فى مقدمة الكتاب :

« وإنى لمـا رأيت الناس قد أفرطوا فى التأليف ، وأملوا الناظرين بأنواع التصنيف فى أشياء معروفة ، وأساليب مألوفة ، صرفت خاطرى إلى وضع كتاب فى أسباب الخلاف الواقع بين الأمة ، قليل النظر ، نافع للجمهور ، عجيب المنزع ، غريب المقطع ، يشبه المخترع ، وإن كان غير مخترع(٢) » .

وهو يعد أول كتاب وصل إلينا من الكتب التى ألفت فى أسباب الاختلاف وقد حصر أسباب الاختلاف ونسقها ونظم عقدها وقد

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١١ نقلا عن الاعتصام للشاطبى ٣ – ١١

(٢) أنظر مقدمة الكتاب .

كان مرجعاً لكثير من العلماء وانتشر فى المشرق بين المجامع العلمية فى مختلف العصور ، وقد نقل إلى الإسكندرية بعد وفاة مؤلفه بسنتين . وقد جاء على نمطه بعد فترة من الزمن كتاب الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف للشيخ أحمد بن عبد الرحيم الشهير بشاه ولى الله الدهلوى المتوفى سنة ثمانين ومائة وألف من الهجرة وهو مطبوع فى مصر .

ومما ألف فى عصرنا الحاضر فى أسباب الاختلاف — مما نعرف — أسباب اختلاف الفقهاء للأستاذ الشيخ على الخفيف أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة .

وأسباب اختلاف الفقهاء للدكتور عبد الله عبد المحسن التركى مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

نسخ الكتاب وتوثيقهـا :

بين أيدينا ثلاث نسخ اعتمدنا عليها فى تحقيق الكتاب .

النسخة الأولى وهى التى اعتمدنا عليها وجعلناها أصلا ورمزنا إليها بالرمز (ا) مصورة من معهد المخطوطات بالقاهرة عن نسخة مخطوطة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وهى مكتوبة بالخط النسخ الجميل مضبوطة بالشكل

وهى رواية تلميذ المؤلف إبراهيم بن محمد المتقن اللخمى السبتى عن المؤلف ابن السيد قرأها عليه سنة ٥١٦ هـ ثم بعد ذلك نقلها إلى الإسكندرية سنة ٥٢٣ هـ وقرأها عليه القاضى الفقيه أبو محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن على بن إسماعيل العثمانى فى شهر رمضان من هذا العام وأجاز له رواية الكتاب وسائر كتب ابن السيد . وفى أول هذه النسخة :

أخبرنا القاضى الفقيه أبو محمد عبد الله بن القاضى أبى الفضل عبد الرحمن بن على بن اسماعيل العثمانى رضى الله عنه قال :

بسم الله الرحمن الرحيم . رب زدنى علما . أخبرنا الفقيه الفاضل أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المتقن اللخمى السبتى قدم علينا ثغر الإسكندرية ، وقرأته عليه فى شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة من الهجرة قال قرأت على الفقيه الحافظ أبى محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى — رضى الله عنه — فى جمادى الأولى سنة ست عشرة وخمسمائة من الهجرة ببلنسية .

وفى آخر هذه النسخة إجازة من ابن المتقن هذا نصها :

سمع جميع هذا الكتاب بقراءته الفقيه القاضى العالم أبو محمد عبد الله بن القاضى أبى الفضل عبد الرحمن بن على بن اسماعيل العثمانى وهو روايتى عن مصنفه ابن السيد . وقد أجزت له ولأخيه الفقيه النبيل أبى الطاهر اسماعيل — وفقهما الله — جميع ما يصح عندهما من رواياتى ومسموعاتى ومستجازاتى ومن ذلك كتاب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب تصنيف الشيخ المذكور وهو قراءتى عليه ، وجميع تصانيفه وروايته ، فقد أجازنيها ، وكتابه المقتبس فى شرح موطأ مالك بن أنس وكتب إبراهيم بن المتقن بن إبراهيم اللخمى السبتى فى شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة .

وفى الصفحة الأولى من الكتاب فى هذه النسخة « كتاب التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم » تصنيف الفقيه الفاضل أبى محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى — رحمه الله — رواية أبى إسحاق إبراهيم بن محمد المتقن ابن إبراهيم السبتى اللخمى .

وتعد هذه النسخة ذات قيمة علمية لأنها قرئت على المؤلف وأجاز

روايتها ورقمها فى مكتبة المدينة ٤٦ توحيد وفى معهد المخطوطات ك ١٧١ وروك ٤٣ .

النسخة الثانية : « مصورة » بمعهد المخطوطات بالقاهرة عن نسخة مخطوطة بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة بخط عالم من العلماء البارزين هو الحافظ أبو الوفاء عبد القادر القرشى (١) ، صاحب كتاب الجواهر المضية فى طبقات الحنفية ، كتبها سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة من الهجرة ، وهى بخط معتاد قد أهمل نقطها أحيانا .

وفى الصفحة الأولى صورة البطاقة المكتبية وفيها تعريف بالكتاب واسمه فيها « التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم لابن السيد البطليوسى » وفى جانب من الصفحة (كتاب أسباب الخلاف الواقع بين الملة الحنيفية تأليف الإمام المحقق أبى محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن السيد البطليوسى المغربى » .

وفرغ كاتبه صاحب طبقات الحنفية الحافظ أبو الوفاء عبد القادر القرشى فى سنة ٧٣٢ هـ وقد رمزنا إلى هذه النسخة بالرمز (ب) ورقمها بالمدينة المنورة ٣٩ أصول فقه وفى المعهد رول ٨٠ - ٣٥٢ النسخة الثالثة نسخة مطبوعة بمصر سنة ١٣١٩ هـ وعنوانها (الإنصاف فى التنبيه على الأسباب التى أوجبت الخلاف بين المسلمين فى آرائهم) وقد رمزنا إلى هذه النسخة بالرمز (ط) وبمراجعة النسخة المطبوعة على النسختين المصورتين وجدنا أن فى المطبوعة تصحيفا كثيراً وسقطا وهذا ما جعلنا نقرر تحقيق الكتاب وتصحيحه ونشره محققا مصححا مع التعليق على كلام المؤلف حين يستدعى المقام ذلك .

اسم الكتاب

ومما يلفت النظر أن النسخ الثلاث تختلف فى العنوان فالنسخة الأولى التى قرئت على المؤلف عنوانها (كتاب التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم) .

---

(١) من فقهاء الحنفية وحفاظ الأحاديث عاش فى القرن الثامن الهجرى توفى بالقاهرة سنة ٧٧٥ هـ وله عدة مؤلفات . أنظر الدرر الكامنة ٢-٣٩٢

وفى النسخة الثانية (كتاب أسباب الخلاف الواقع بين الملة الحنيفية) بينما هو مقيد فى البطاقة المكتبية بعنوان : التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم .

أما النسخة المطبوعة فعنوانها (الإنصاف فى التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم) .

ولا ندرى من أين جيء بهذا العنوان ؟ فجميع التراجم (المراجع ومنها برو كلمان) التى ذكرت مؤلفات ابن السيد ذكرت هذا الكتاب باسم : التنبيه وهو ما يتفق مع عنوان النسخة الاولى ، ولعل كلمة الإنصاف هذه مقحمة من بعض رواة الكتاب « يدلنا على ذلك أن كلمة الإنصاف تشعر بعرض المذاهب ، واختيار بعض ، ورفض بعض ، وهذا ليس من مقاصد الكتاب ، فالمؤلف يقول فى المقدمة : وإنما غرضى أن أذكر الأسباب التى أوجبت الخلاف بين أهل ملتنا الحنيفية . . . ولا غرضى أيضاً أن أحصر أصناف المذاهب والآراء ، وأناقض ذوى البدع المضللة والأهواء ، لأن هذا الفن من العلم قد سبق إليه . . . وإنما غرضى أن أنبه على المواضع التى منها نشأ الخلاف بين العلماء .

ولهذا كان عنوان (التنبيه على الأسباب التى أوجبت الخلاف) متفقا مع غرض المؤلف ، وهو العنوان الذى آثرناه ، لأنه هو الذى رواه تلميذ المؤلف ، وكادت تجمع عليه كتب التراجم(١) .

منهج المؤلف : وقيمة الكتاب العلمية :

هذا الكتاب يدل على أن المؤلف كان على قدر كبير من الفهم العميق للشريعة الإسلامية ، والإحاطة بأسرارها . وقد يعد هذا أمراً

---

(١) أنظر كشف الظنون ص ٤٨٨ - الحركة اللغوية فى الأندلس ص ٤٢١ - الصلة لابن بشكوال ١ - ٢٨٢ . شذرات الذهب ٤ - ٦٤ - ٦٥ . وفيات الأعيان ٢ - ٣٣٢ . الفهرسة للأشبيلى ٤٨٣ - بروكلمان - ليدن جـ ١ ص ٤٢٧ - والملحق جـ ١ ص ٥٤٣ ، ٧٥٨ .

عجباً بالنسبة لرجل يعد من أساطين علماء اللغة والأدب ، حتى يخيل لمن يقرأ له فى اللغة والأدب أنه فرغ لهما . فكيف يبرع فى الفقه وعلوم العقيدة ؟

وهذا العجب لا يلبث أن يزول حين تعلم أن الأندلسيين كان منهجهم فى التعليم الإحاطة أولا بقدر كبير من علوم الدين من حفظ للقرآن ودراسة للحديث والتفسير والفقه . يستوى فى ذلك اللغوى والفقيه والمهندس والطبيب . ولذلك كثر بينهم النحوى الفقيه والفقيه النحوى ، والطبيب المحدث ، والمحدث اللغوى . فهذا الإمام الشاطبى ألف فى النحو بمثل البراعة والقوة اللتين ألف بهما فى الفقه والأصول . وأبو حيان فقيه ومفسر ونحوى وأديب شاعر – وكان لهم من ذكائهم وقوة حافظتهم أكبر عون .

وقد قدم ابن السيد بمقدمة تتسق مع موضوع الكتاب ، بين فيها أن الاختلاف بين الناس فى الآراء والمعتقدات أمر طبعى ، وقد أتى بفكرة جديدة لم نقرأها لغيره – على ما يبدو لى – وهى أن الاختلاف بين الناس فى الدنيا دليل على البعث ، وعلى أن هناك حياة وراء هذه الحياة ، وذلك لأن الاختلاف يقتضى الائتلاف لأنهما من الأمور الإضافية . ولكن لا يمكن الائتلاف فى هذه الحياة لاختلاف الناس فى طبائعهم وخلائقهم . إذن لابد من حياة أخرى ننتقل فيها إلى طبيعة تختلف عن هذه الطبيعة يرتفع فيها الخلاف والخصام . وهى هذه الحياة التى نوه الله سبحانه بها فقال : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين(1) » .

ولم ينس وهو الإمام اللغوى أن يشيد بعلوم اللغة والأدب ، وأثرها فى فهم القرآن والسنة واستنباط الأحكام ، وبين أن الفقه مؤسس على أصول كلام العرب .

وختم مقدمته ببيان غرضه من الكتاب ، وهو التنبيه على أسبابه

---

(1) سورة الحجر ٤٧

الاختلاف بين الأئمة ، وليس القصد منه دراسة المذاهب والآراء ، ونقضها أو تأييدها .

أما أسباب الخلاف – وهى موضوع الكتاب – فقد حصرها فى ثمانية أوجه وعقد لكل سبب أو بعبارة أخرى لكل وجه يرد منه الخلاف بابا ، فجملة الأبواب ثمانية .

حصر ما يتعلق منها بالألفاظ والتراكيب ودلالتها فى بابين هما :

الباب الأول تكلم فيه على الاشتراك بأنواعه المختلفة سواء أكان فى الألفاظ أم فى الإعراب أم فى التراكيب .

وفى الباب الثانى تكلم عن الخلاف العارض من جهة الحقيقة والمجاز

وقد تجلت براعة المؤلف اللغوية فى هذين البابين بأوضح ما تكون وضرب الأمثلة وساق الشواهد من اللغة وفى هذين البابين فسر كثيراً من أوجه الخلاف فى العقائد ، وبين من أين دخل الانحراف العقائدى على بعض الفرق ، ففسروا الألفاظ بمعانيها الوضعية مع أن المقصود منها المعنى المجازى كما حدث فى تفسير قوله تعالى : (الله نور السموات والأرض(١)) ففسروا النور على حقيقته وتوهموا أن الله نور . والحق أن المراد أنه هادى أهل السموات والأرض ثم شرح الآية وبين أن المراد منها التمثيل كما قال الله تعالى بعد ذلك (ويضرب الله الأمثال) وبين هذا التمثيل فقال : شبه صدر المؤمن بالمشكاة ، وقلبه بالزجاجة ، ونور الهدى الذى يضعه فى قلبه بالمصباح وشبه مادة الهدى المنبعثة من قبل الرسول عليه السلام فزيد فى بصائر المؤمنين ، وتحفظ نور الإيمان بمادة الزيت التى تمد المصباح لئلا يطفأ نوره ، وشبه النبى – صلى الله عليه وسلم – بالزيتونة ، إذ كان الهدى إنما ينبعث من قبله كانبعاث الزيت من الزيتون ، وجعل الزيتونة لا شرقية ولا غربية ، لأن ظهوره ومبعثه عليه السلام إنما كان بمكة ، ومكة وسط بين المشرق والمغرب .

---

(١) سورة النور آية ٣٥ .

وهكذا يمضى فى تفسير الآية .

وفى الباب الثالث تحدث عن الاختلاف العارض من جهة إفراد النص أو تركيبه مع نص آخر وذلك أنه قد ترد الآية أو الحديث غير مستوفية للغرض من التعبد ثم يرد تمام الغرض فى آية أخرى أو حديث آخر فربما أخذ بعض الفقهاء بمفرد الآية أو بمفرد الحديث ويجيء بعض آخر ويبنى قياسه على مجموع الآيتين أو الحديثين أو الآية والحديث ، فيفضى الحال إلى الاختلاف بين الفريقين ، فيحل أحدهما ما يحرم الآخر ، وقد يفضى إلى اختلاف العقائد ، وساق المؤلف الأمثلة المختلفة ورجع إلى سليقته اللغوية فأفاض وذكر كلاماً يتعلق بمعانى الحياة والموت أوصلها إلى ثلاثة عشر معنى ، وأرى أن ذلك حشو لا يقتضيه المقام ، وإن كان عظيم الفائدة .

وقد ترد الآية مجملة ثم يفسرها الحديث كما فى قوله تعالى : (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا)(١) . ثم قال الرسول — صلى الله عليه وسلم : « خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » .

كذلك بعض الناس خطر ببالهم أمر القضاء والقدر فتأملوا القرآن الكريم والحديث الشريف فوجدوا فيهما نصوصاً ظاهرها الإجبار والإكراه كقوله تعالى : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى(٢) » (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة(٣)) .

وفى الحديث الشريف : السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه »

---

(١) النساء : ١٤ .

(٢) الأنعام : ٣٥ .

(٣) البقرة : ٧

فبنوا على هذه الآيات والآثار أن السعيد مجبر ، ومن اعتقد غير هذا فقد كفر .

وجاء قوم آخرون فتصفحوا القرآن وتأملوه وتأملوا الآثار فإذا القرآن يقول : (ولا يرضى لعباده الكفر(١)) – (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا(٢)) .

والرسول عليه السلام يقول : كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه فبنوا على هذا أن العبد يفعل ما يشاء باختياره .

ثم جاءت طائفة ثالثة فوضعت جميع الآيات التى وردت فى القضاء والقدر والأحاديث بين يديها وتأملتها فخرجت برأى سليم من غلو القدرية وتقصير الجبرية .

ولقد شرح المؤلف موضوع القضـــاء والقدر بأوضح عبارة لمـــا نر من بسطه هذا البسط ووضحه هذا التوضح . ومع ذلك فقد أوصى بعدم الخوض فى حديث القضاء والقدر ويؤكد حقيقتين : الأولى : إنه لا فاعل على الحقيقة إلا الله وأن كل فاعل غيره إنما يفعل بمعونة من عند الله .

والثانية : أن أفعال البارى عز وجل كلها حكمة محضة لا عبث فيها ، وعدل محض لا جور فيه ، وحسن محض لا قبح فيه ، وخير محض لا شر فيه . ثم يقول :

وجملة ذلك أنه لا يشبه شيئاً من المخلوقات فى جهة من الجهات . فكل قول أداك إلى تشبيهه بخلقه فى ذات أو فعل فارفضه رفض القذاة ، وانبذه نبذ النواة ، ولا تتهم بارئك فى حكمته ، ولا تنازعه فى قدرته ، واعلم بأنه غنى عنك وأنت مفتقر إليه ووارد بما تزودت من عملك عليه ، تبارك المنفرد بأقضيته وأحكامه ، الذى لا ينازع فى نقضه

---

(١) الزمر : ٧ .

(٢) الدهر : ٣ .

وإبرامه ، ولا يمترى العاقلون فى عدله ، ولا ييأس المذنبون من عفوه وفضله لا رب سواه ، ولا معبود حاشاه .

بهذه الكلمات التى تفيض إيمانا ختم الباب الثالث .

وفى الباب الرابع عرض للعموم والخصوص فى اللفظ والتركيب وهو يعد من أهم أسباب الخلاف مثل قوله تعالى : (لا إكراه فى الدين(١)) قال قوم هذه الآية خاصة بأهل الكتاب لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية ، وقال قوم هى العموم ثم نسخت . يقول الله عز وجل : (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم(٢)) .

وفى الباب الخامس عرض للرواية والنقل ، والأحاديث تختلف من حيث ما يعرض لها من علل ، فربما صح الحديث عند مجتهد ، ولم يصح عند آخر ، وربما وصل الحديث كاملا لمجتهد ، ووصل بعضه لمجتهد آخر ، وربما نقل الحديث بلفظه إلى فقيه ، وبمعناه إلى فقيه آخر . فيؤدى ذلك كله إلى اختلاف الأحكام .

وربما أخطأ الراوى فى الإعراب ، فيتلقاه فقيه ويبنى عليه حكما ، ويتلقاه فقيه آخر صحيحاً فيبنى عليه حكماً يخالف الأول . وقد فصل المؤلف العلل التى تعرض للحديث ، وضرب الأمثلة والشواهد .

وفى الباب السادس : عرض للخلاف الناشىء عن الاجتهاد والقياس حين لا يكون نص من القرآن العزيز والحديث الشريف ، فيفزع الفقهاء إلى النظر والقياس ، وحينئذ يختلفون لاختلاف مقدرتهم على القياس والاستنباط ، أو اختلافهم فى المقدرة اللغوية والعلم بأساليب العرب . هذا بينما يقف فريق من الفقهاء موقف المنكر للقياس .

أما الباب السابع : فقد خصصه للنسخ وعده سبباً من أسباب الخلاف من جهة أن بعض الفقهاء يقول به ، وبعض آخر ينكره ومن يقول به

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .
(٢) التوبة : ٧٣ .

هل يجوز نسخ القرآن بالحديث ؟ وهل يجوز النسخ فى الأخبار ؟ وقد أوجز المؤلف فى هذا الباب كما أوجز فى الباب الثامن والأخير حيث عرض للخلاف العارض من قبل أشياء وسع الله فيها على عباده ، وأباحها لهم على لسان نبيه ، وتختلف فيها وجهات النظر كالخلاف فى الأذان والتكبير على الجنائز وتكبير التشريق .

هذه هى أسباب الاختلاف التى عرضها المؤلف ولا ندعى أنه أحاط بجميع أسباب الخلاف ولكنه أحاط بمعظمها وكان فى كتابه هذا لغوياً أكثر منه فقيها . يفيد منه اللغوى كما يفيد الفقيه .

حيـــاة المؤلفـــــ

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب هذا التصنيف هو عبد الله بن السيد البطليوسى(١) . إمام من أئمة النحو واللغة وأديب تمتع بحاسة قوية كان لها الأثر الأكبر فى إدراك معانى الشعر . قويها ، وضعيفها . غثها ، وسمينها . اهتم بعلوم العربية وآدابها . كما اهتم بالعلوم الإسلامية والفلسفية .

وإذا كانت آثار الإنسان هى الترجمة الواقعية ، والأثر الملموس لحياته وفكره فإن هذا الإنتاج العلمى الذى أثرى به المكتبة العربية ليعكس صورة واضحة لشخصه وعقله الكبير .

حياته

استقبل الحياة فى مدينة بطليوس(٢) سنة ٤٤٤ هـ . ونشأ بها وقضى فترة طويلة يجلس بين علمائها الذين رسموا له طريق البحث والتحصيل ثم تركها

---

(١) بفتح الباء والطاء وسكون اللام وفتح الياء . أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسى والسيد بكسر السين الذئب . لقب به جده ، والبطليوسى : جماعة من مدينة شلب كان من بينهم علماء أفذاذ لكن أشهرهم هو ابن السيد . فحين تطلق كلمة البطليوسى لا تنصرف إلا إليه . انظر : أزهار الرياض جـ ٣ ص ١١٩ - ١٤٩ .
الصلة ٢٨٧
شذرات الذهب جـ ٤ ص ٦٥
بغية الوعاة ٢٨٨ .
كشف الظنون ٤٨ ، ٧٥ ، ١٨٠ ، ٤٨٨ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٨١٢ ، ٩٩٢ ، ١٢٧٣ ، ١٤١١ ، ١٥٨٧ ، ١٩٠٧ .

(٢) بفتح الباء والطاء وسكون اللام ، وفتح الياء : مدينة كبيرة فى الأندلس على نهر آنة غربى قرطبة .
راجع معجم البلدان جـ ١ ص ٤٤٧

قاصدا قرطبة(١) التى كانت فى ذلك الوقت تموج بالعلماء والأدباء ففيها أبو على الغسانى الذى عنى بالحديث وكتبه وروايته . كما كان له اهتمام بالشعر والأنساب . وهنا يتابع ابن السيد دراسته للفقه والحديث على يد شيخه أبى على . لذا فقد روى أنه شرح الموطأ(٢) للإمام مالك بن أنس — رضى الله عنه .

ولم تكن دراسته للفقه والعلوم الإسلامية مقصورة على أبى على الغسانى بل درس على كثير من الشيوخ الذين كانت قرطبة تزخر بهم آنذاك . وبعد أن قضى هذه الفترة فى قرطبة أخذ يتنقل بين المدن المختلفة إذ أن أحوال الأندلس السياسية فى ذلك الوقت كانت فى قلق مستمر وماذا يصنع ابن السيد تجاه هذه الأحوال المضطربة التى قد تهدد حياته لقد ولى وجهه تجاه بلنسية(٣) لأنها كانت أكثر هدوءاً واستقراراً . وبعد أن استقر بها بدأ الطلاب يقبلون عليه ، وتوافدوا من كل صوب وحدب يأخذون عنه ، ومنه يقتبسون . ونتيجة لهذا الاستقرار استطاع ابن السيد أن يؤلف معظم تآليفه الكثيرة .

وظل ببلنسية علما من أعلامها حتى وافته المنية فى منتصف رجب سنة سنة ٥٢١ هـ .

عصره

أدرك البطليوسى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى . والأندلس قد انهارت أسسه وتناثرت أشلاؤه . وتنوعت الرئاسات فى نواحيه فقد

---

(١) بضم أوله وسكون ثانيه ، وضم الطاء المهملة : مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها كانت عاصمة ملوك بنى أمية .

المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٢٤ .

(٢) راجع حاجى خليفة : كشف الظنون ص ١٩٧٠ .

(٣) بكسر السين المهملة ، وفتح الياء دون تشديد : مدينة مشهورة بالأندلس شرق قرطبة , وهى برية بحرية . كان الروم قد ملكوها ، ثم استردها المسلمون وأهلها يسمون عرب الأندلس : أنظر معجم البلدان حـ ١ ص ٤٩٠ .

مزقته المنافسات والأطماع الشخصية وغدا بعد ذلك دويلات صغيرة يحكمها أمراء سموا ملوك الطوائف .

وقد وصف ابن الخطيب بلاد الأندلس عقب الفتنة ، وقيام دول الطوائف بقوله :

وذهب أهل الأندلس من الانشقاق ، والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من هذه الأقطار ليس لأحدهم فى الخلافة إرث ، ولا فى الإمارة سبب ، ولا فى الفروسية نسب ، ولا فى شروط الإمارة مكتسب .

وعلى الرغم من أن عصر الطوائف كان عصر التمزق السياسى . إلا أنه دفع الحياة العلمية ورعاها فقد كان التنافس بينهم سبباً لدفع عجلة العلم . وازدهاره . فكل بلاط يفتخر على الآخر بما يضمه من خيرة العلماء والأدباء ، لذا فقد شهدت الأندلس نشاطا(١) لغوياً واسعاً بعد أن أصبحت قبلة يتجه إليها العلماء والطلاب ينهلون من علمها .

وقد ظهر من أعلام اللغة فى ذلك الوقت ابن سيده ، والأعلم الشنتمرى وابن السيد .

شـــيوخه

فى المرحلة الأولى من حياته تتلمذ على أخيه أبى الحسن على بن السيد . فهو الذى نهج له طريق البحث . وقد كان أبو الحسن مقدما فى علم اللغة ، والضبط لهما . وعنه أخذ ابن السيد كثيراً من كتب الأدب وغيرها . أما المرحلة التى قضاها فى قرطبة فقد تتلمذ على شيخ المحدثين أبى على الغسانى ، وغيره من الشيوخ الذين كانت قرطبة تموج بهم فى ذلك الوقت .

كما كان من شيوخه على بن أحمد بن حمدون المقرئ البطليوسى المعروف

---

(١) عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٩٣ ، ١١٦ .

بابن اللطينية(١) ، وعاصم بن أيوب الأديب البطليوسى(٢) وأبو سعيد الوراق وأبو الفضل الوزير محمد عبد الواحد التميمى البغدادى ، وعبد الدائم القيروانى وعثمان بن سعيد الأنصارى ، وعلى بن خلف الدانى .

تلامــذته

استقر المقام بابن السيد فى بلنسية ، وهناك طبقت شهرته الأندلس فاتجه إليه الناس راغبين فى العلم والأدب .

وقد نقل ابن خلكان أنه سكن بلنسية ، وكان الناس يجتمعون إليه ، ويقرءون عليه ويقتبسون منه . وبدأ الراغبون فى العلم يتوافدون عليه من كل صوب وحدب كما نقل صاحب المطرب فى ترجمة أبى اسحاق إبراهيم ابن يوسف الحمزى أنه رحل شرق الأندلس للقاء الأستاذ العالم أبى محمد ابن السيد البطليوسى فممن درسوا عليه عمر بن محمد بن واجب القيسى البلنسى صاحب الأحكام ببلنسية . وكان فقيها حافظا للمسائل مشاورا(٣) ، ومروان ابن عبد الله بن مروان البلنسى قاضى بلنسية ورئيسها(٤) ، والقاضى عياض السبتى قاضى سبته وغرناطة كان إماما فى الحديث(٥) ، والدانى : أبو العباس المعروف بابن الأقليشى صاحب شرح أسماء الله الحسنى ، وشرح الباقيات الصالحات ، وكتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم ، وأبو الحسن عبد الملك بن محمد بن هشام القيسى من أهل شلب(٦) كان من أهل العلم بالحديث ، والمعرفة باللغة ، والأدب(٧) وأحمد بن مالك بن مرزوق من أهل

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ت ٨٩١

(٢) المصدر السابق ت ٩٦٦ .

(٣) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ؛ ت ١٨٢٤ .

(٤) المصدر السابق ت ١٠٨٨

(٥) الأعلام جـ ٥ ص ٢٨٢ .
بغية الملتمس ص ٤٢٥ .

(٦) روضات الجنات جـ ٣ ص ٤٢٨ .

(٧) التكمله ت ١٧١٥ .

طرطوشة ، ولى قضاءها . وأحمد الأنصارى الخزرجي من أهل بلنسية . وغيرهم كثير .

من آراء المؤرخين

يقول صاحب الصلة : كان عالمـــا بالآداب واللغات متبحراً فيهما مقدماً فى معرفتهما ، وإتقانهما وكان جيد التعلم حسن التفهيم . ثقة ضابطا(١)

ويقول البغدادى : الإمام النحوى اللغوى . الفقيه(٢) .

ويقول المقرى : هو نحوى زمانه وعلامته(٣) .

وجاء فى بغية الوعاة : عبد الله بن السيد . نزيل بلنسية . انتصب لإقراء علوم النحو(٤) واجتمع إليه الناس ، وله يد فى العلوم القديمة .

ويقول البغدادى فى الخزانة : هو خبير بآراء اللغويين(٥) .

وفى روضات الجنات : الإمام المقدم اللغوى . النحوى . البلنسى له فتاوى نادرة فى كتب الفقه واللغة (٦) .

ويقول الضبى فى بغية الملتمس . إمام فى اللغة ، والآداب . سابق مبرز وتآليفه دالة على رسوخه واتساعه ونفوذه(٧) .

وفى قلائد العقيان : إنه ضارب(٨) قداح العلوم . شيخ المعارف وإمامها

---

(١) ابن بشكوال : الصلة جـ ١ ص ٢٨٢ .

(٢) البغدادى : هدية العارفين . طبعة استانبول جـ ١ ص ٤٥٤

(٣) المقرى . نفح الطيب جـ ٢ ص ١٦٧ – ١٧٣ .

(٤) السيوطى : بغية الوعاة جـ ٢ ص ٥٥ .

(٥) البغدادى : الخزانة جـ ٣ ص ٢٧ ، ١٧٠ .

(٦) أنظر : روضات الجنات جـ ٢ ص ٤٣١ .

(٧) الضبى : بغية الملتمس ت ٨٩٢ .

(٨) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان جـ ٣ ص ١٠٦ .

ومن فى يديه مقودها ، وفى موضع آخر : هو أذخر علمائنا بحراً وأوسعهم علما وأصدقهم لسانا وقد رأيت أن أفرد كتابا فى أخباره(١) .

البطليوسي لغوياً

أجمعت كتب التاريخ التى تناولت سيرة البطليوسى على وصفه باللغوى ، وبقولهم : إمام فى اللغة .

وفى الأدب : قال الشعر فى معظم الأغراض ، وأسلوبه يتميز بالرصانة والوضوح .

وأما النحو فقد أجمع المؤرخون على وصفه بهذه الصفة . فقالوا : ابن السيد النحوى . هو نحوى زمانه . شيخ النحاة . وقالوا : إمام فى النحو بلا منازع .

وقد اتخذ البطليوسى من النحو أساساً فى كل شروحه اللغوية . فلم يترك مسألة صغيرة ، ولا كبيرة إلا عالجها ووضعها على بساط البحث . وأبدى رأى البصريين ، والكوفيين . ثم ينهى حديثه قائلا : والمختار هو كذا . ولن تجد صفحة واحدة تمر إلا وكانت زاخرة بالمسائل النحوية التى يدعمها بالشواهد القرآنية ، والأحاديث النبوية وسيل من الشعر العربى .

وقد ترك البطليوسى تصنيفه المشهور فى النحو وهو إصلاح الخلل الواقع فى الجمل للزجاجى .

تراثـه

« إصلاح الخلل الواقع فى الجمل »

من بين كتب النحو التى راجت فى الأندلس كتاب الجمل للزجاجى الذى حمله تلميذه أبو الحسن بن بشر الأنطاكى(٢) فتلقفه الأندلسيون بالإعجاب ، ودارت حوله شروح ، ومطولات بلغت المائة والعشرون .

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٠٥ . وهذا الكتاب نقله المقرى فى أزهار الرياض جـ ٣ ص ١٠١ - ١٤٩ .

(٢) اشارة التعيين ورقه ١٩ ومقدمة السهيلى ومذهبه فى النحو . رسالة دكتوراه . محمد البنا .

وكان البطليوسى ممن تناولوا الكتاب بالشرح ففاق شرحه كل الشروح التى تعرضت للكتاب . قال المؤرخون « وأحسن الشروح شرح البطليوسى » وقد سماه « إصلاح الخلل الواقع فى الجمل » ولعل هدفه يتضح من عنوانه . فقد تتبع البطليوسى الخلل الواقع فى الجمل ، وتصدى للرد على كل نقطة رآها . وقد سمى نفسه المفسر لأنه شرح بعض المبهمات التى وقعت فى الكتاب ، وقد اشتمل الكتاب على مائة وعشرين مسألة قد تزيد قليلا ، كما أكثر المؤلف من استشهاده بالقرآن ، والحديث ، والشعر القديم دعما لرأيه ، وتقوية لحجته . والكتاب يقع فى مجلد صغير منه نسخة فى دار الكتب المصرية ، وأخرى فى مكتبة ليدن بهولندا ، وثالثة بمكتبة برلين(١) .

« الحلل فى أبيات الجمل »

بهذا سماه صاحبه . وهو شرح آخر لجمل الزجاجى تتبع فيه الأبيات وتناولها بالشرح والتحليل ، ونسبة الأبيات ، وإعرابها ، كما تناول فيه المسائل النحوية . والكتاب منه نسخة فى مكتبة بغداد ، وأخرى فى مكتبة برلين .

« مسائل منثورة فى النحو »

أشار بروكلمان إلى أن هذا الكتاب منه نسخة فى مكتبة جاسكى بلندن .

« المسائل والأجوبة »

يشتمل هذا التصنيف على مسائل كان ابن السيد قد سئل عنها فكتب أجوبة وألف من مجموع الأجوبة كتابا ضخما تناول فيه ما ينيف على مائة مسألة . ويبدو أن الكتاب كان بعض مسائل عرضت لابن السيد فى مناقشاته ثم إنه لما أخذت هذه المسائل تعظم وتكثر فكر فى جمعها ، وجعلها فى كتاب غير أنه أدرك أن هناك مزيداً من الأمثلة ستبدو مع الأيام فقال هذا التأليف معرض للزيادة ، ولاتمام له ، ولا انقضاء حتى يشارف العمر

---

(١) قام الدكتور حمزة النشرتى بتحقيق هذا الكتاب القيم وهو فى سبيله إلى الطبع .

الانتهاء ، وقد نشر جزء من هذه المسائل مع رسائل أخرى لمؤلفين آخرين بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائى سنة ١٩٦٤ ، ومن الكتاب نسخة فى مكتبة الاسكوريال برقم ١٥١٨، ، وأخرى بعنوان الأسئلة فى مكتبة القرويين برقم ١٢٤٠ ، وثالثة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .

« شرح سقط الزند »

من أكثر كتب أبى العلاء تداولا بين المتأدبين وبه اشتهر ، وقد تولى تفسيره ابن السيد يقول ابن خلكان : وشرح ابن السيد لسقط الزند شرح عظيم استوفى فيه المقاصد ، وهو أجود من شرح أبى العلاء صاحب الديوان الذى سماه ضوء السقط ويقول ابن خير فى فهرسته : وشرح ابن السيد يمثل ذروة نضج الفكر الأندلسى فى هذا العصر .

« لزوم مالا يلزم »

من بين ما خلفه أبو العلاء ديوانه « سقط الزند » وديوانه اللزوم .

والسقط شعره فى صباه ، واللزوم شعره واتجاهاته إلى كشف الحقيقة .

وديوانه اللزوم تركه صاحبه دون شرح أو تفسير . ولولا ما اختاره ابن السيد من لزوميات شرحها ، وما شرحه الدكتور طه حسين من اللزوم لبقى هذا الديوان كما بقى أكثره مبهما فى حاجة إلى تفسير .

واللزوميات التى شرحها ابن السيد كانت ضمن شرح سقط الزند ، ولم يفرد البطليوسى لها كتابا خاصاً . فجمعها الدكتور حامد عبد المجيد ، واختار لها هذا الاسم « شرح المختار من لزوميات أبى العلاء » .

« الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب »

ذكر أكثر الذين ترجموا لابن السيد كتابه : الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب . وقالوا عنه : إنه شرح مفيد جداً . وقد عرفه بعضهم باسم الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، أو شرح أدب الكاتب

والكتاب يقع فى ثلاثة أقسام : (ا) تفسير الخطبة ومراتب الكتاب . (ب) فى التنبيه على ما غلط فيه واضع الكتاب . (ج) فى شرح أبياته .

شرح الكامل للمبرد :

ذكر هذا الكتاب منسوباً لابن السيد فى الخزانة(١) ، وفى شرح الشافية(٢) .

وكثيراً ما ترددت هذه العبارة . قال ابن السيد فيما كتبه على الكامل ، ورواه ابن السيد فيما كتبه على كامل المبرد .

شرح مثلثـات قطرب :

يقع المخطوط فى مجلدين أتى المصنف فيه بالعجائب ، وقد دل على اطلاع عظيم .

وبدار الكتب المصرية نسخة قديمة تلف بعضها ، وبمعهد المخطوطات صورة جيدة من هذا الكتاب

ذكر الفرق بين الأحرف الخمسة :

من أهم الكتب اللغوية التى تشهد لصاحبها ببراعة اللغة وتمكنه فيها . والمخطوط كبير الحجم منه صورة فى معهد المخطوطات . وقد صور من مكتبة راغب باشا(٣) .

التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم :

وهو الكتاب الذى بين أيدينا .

الحدائق فى المطالب العالية الفلسفية العويصة :

حاول ابن السيد فى كتابه هذا حل الكثير من المسائل الفلسفية التى طالما شغلت الفكر الإسلامى بعد أن استمدت أصولها من الفلسفة اليونانية دون أن يخرج عن حدود الشرع .

---

(١) انظر الخزانه جـ ١ ص ١٠ ، ١٠٠ ، ١٦٥ ، جـ ٢ ص ١٨٩ ، ٣٠٠ ، ٤٥٢ — جـ ٣ ص ٧٢ ، ٨١ ، ٢٠٧ – جـ ٤ ص ٤٢ ، ١٨٤ ، غيرها من المواضع .

(٢) انظر شرح الشافية ص ٣١ ، ٣٥ ، ٧٥ ، ٧٧ .

(٣) نشر الدكتور حمزه النشرتى جزءا محققا من هذا الكتاب فى مجلة كلية اللغة العربية بالرياض .

الاسم والمسمى :

كتاب صغير مصور فى معهد المخطوطات من مكتبة الاسكوريال .

إصـــلاح المنطق :

ذكره البغدادى فى الخزانة . قال : قال ابن السيد فى شرح اصلاح المنطق . ديار من الدار .

أبيـــات المعانى :

روى البغدادى فى الخزانة « والبيتان نسبهما ابن السيد فى أبيات المعانى وترددت عبارات كثيرة تشهد بتصنيفه للكتاب .

شرح فصيح ثعلب(١) :

نقل منه صاحب التصريح . قال : قال البطليوسى فى شرح الفصيح عن سيبويه .

شرح ديوان المتنبى(٢) :

قال ابن خلكان : سمعت به سنة ٦٥١ هـ ولم أقف عليه . وقيل : إنه لم يخرج من المغرب .

الانتصار ممن عدل عن الاستبصار :

كتاب لغوى رد فيه المؤلف على ابن العربى الأخطاء التى وجهها إليه فى شرح ديوان أبى العلاء ومنهج المؤلف فى هذا الكتاب كمنهجه فى إصلاح

---

(١) كشف الظنون ص ١٢٧٣ .

(٢) المصدر السابق ٨١٢ .

الحلل ، وشرح أدب الكتاب فقد بدأ بذكر المسألة التي اعترض عليها ابن العربي . ثم أعقبها بالرد عليه مظهراً أخطاء ابن العربي نفسه .

شرح الجمل في النحو للجرجاني المتوفى سنة ٤٧٤ هـ :

فقد أشار إليه صاحب كشف الظنون(١) .

وبعد : فهذه عجالة سريعة استطعنا من خلالها أن نبرز صاحب هذا التصنيف الذي توزعت اهتماماته بين اللغة والأدب وبين العلوم الإسلامية .

---

(١) كشف الظنون ص ٦٠٢

ر و ل ٤٢ ك ١٧١

مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ٤٦ توحيد

التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم

لابن السيد البطليوسي

رواية أبي إسحاق إبراهيم بن محمد المنتفق بن إبراهيم الشبقي اللخمي

أوله: أخبرنا القاضي الفقيه أبو محمد عبد الله بن القاضي أبي الفضل عبد الرحمن بن يحيى بن إسماعيل العثماني ... قال: أخبرنا ... إبراهيم بن محمد المنتفق بن إبراهيم اللخمي الشبقي، قدم علينا ثغر الإسكندرية، وقرأته عليه في شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة قال: قرأت على الفقيه الحافظ ... بن السيد البطليوسي رضي الله عنه في جمادى الأولى سنة ست عشرة وخمسمائة ببلنسية. قال: الحمد لله سابغ النعم

وآخره: وأنا أستغفر الله من زلل إن كان عرض وأسأله عوناً على ما نتعبد به من فرض، لا يدرك غيره، ولا محمود سواه.

نسخة مقابلة نفيسة مضبوطة، بأولها قراءة سنة ٥٥٤، وبآخرها قراءة في السنة المذكورة، ثم سماع على النسخة المنقول منها بتاريخه سنة ٥٢٣

٦٢ ورقة ١٥ سطراً ١٩×١٤ سم

كتاب فيه

التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم تصنيف الفقيه الفاضل أبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي رحمه الله.

رواية أبي إسحق إبراهيم بن محمد المنتفق بن إبراهيم الشبقي اللخمي

قرأ على هذا الكتاب ... [illegible]

على هذه الصفحة صورة لعنوان الكتاب وعليها بعض الإجازات وبيانات مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة

أخبرنا القاضي الفقيه أبو محمد عبد الله بن القاضي أبي الفضل عبد الرحمن بن يحيى بن إسماعيل
العثماني رضي الله عنه إذنا عليه وهو سبط في أصله بثغر الإسكندرية قال

بسم الله الرحمن الرحيم رب زدني علما

أخبرنا الفقيه الفاضل أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن المتقن بن إبراهيم
اللخمي السبتي قراءة عليه بثغر الإسكندرية وقراءته عليه في شهر رمضان
المعظم سنة ست وخمسين وخمسمائة قال قرأت على الفقيه الحافظ أبي محمد
عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي رضي الله عنه في جمادى الأولى
سنة سبع عشرة وخمسمائة ببلنسية قال الحمد لله مسبغ النعم
ومسوغ القسم والمتفرد بالقدم ومبدي النسم وموجدها بعد العدم وباعث
العظام الهامدة والرمم والمخالف بين الهيئات والشيم حكمة تاهت في
فهمها عقول ذوي الحكم خلق الأجسام من أضداد متنافرة وائتلافها
بقدرته والتي تفاوضها لحكمته حتى أبرزها للعيان متغايرة الصور والألوان
متفقة الأشكال مخترعة على غير مثال وخالف بين الآراء والاعتقادات كما
خالف بين الصور والهيئات ولقد نبهنا على ما في ذلك من واضح الآيات فقال عز
من قائل ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك
لآيات للعالمين وقال جل جلاله ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم
وبين لنا أنه قادر على غير ما يجري به العادة فقال ولو شاء الله لجمعهم

على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ونبهنا ألطف تنبيه
على ما في هذا الخلاف الموجود في البشر المركوز في الفطر
من الحكمة البالغة وأنه جعله أحد الدلائل على صحة
البعث الذي أنكره من ألحد في آياته وكفر بسوابغ
نعمائه فقال وقوله الحق ووعده الصدق وأقسموا بالله
جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا
ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذي يختلفون فيه
وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين وهذه الآية
أحد ما تضمنه القرآن العزيز من الأدلة البرهانية على صحة
البعث ووجه البرهان المنتزع من هذه الآية التي لا يقدرها
حق قدرها إلا العالمون ولا يتنبه لغامض سرها إلا
المستبصرون أن اختلاف الناس في الحق لا يوجب اختلاف
الحق في نفسه وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه والقياسات
المركبة عليه والحق في نفسه واحد فلما ثبت أن ها هنا
حقيقة موجودة لا محالة وكان لا سبيل لنا في حياتنا

الصفحة الأولى من النسخة التي رواها ابرهيم بن محمد بن المتقن عن المؤلف وقرأها عليه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي رحمه الله

الصفحة الأولى من نسخة ب التي بخط العلامة عبد القادر القرشي صاحب كتاب الجواهر المضية في طبقات الحنفية

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا القاضي الفقيه أبو محمد عبد الله بن القاضي أبي الفضل عبد الرحمن بن يحيي بن إسماعيل العثماني رضي الله عنه قال :

بسم الله الرحمن الرحيم . رب زدني علما . أخبرنا الفقيه الفاضل أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ محمدٍ المُتْقِن ابن إبرهيم اللخمي السَّبْتي ، قدم علينا ثغر الإسكندرية وقرأته عليه في شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وعشرين وخمس مائة . قال :

قرأت على الفقيه الحافظ أبي محمد عبد الله بن السِّيْد البَطَلْيَوْسيّ - رضي الله عنه - في جمادى الأولى سنة ست عشرة وخمس مائة ببلنسية قال :

الحمد لله مسبغ النِّعَم ، ومُسَوِّغ القِسَم ، والمنفرد بالقِدَم ، وباري النَّسَم ، وموجده بعد العدم ، وباعث العظام الهامدة والرمم[1] ، والمخالف بين الهيآت والشِّيَم[2] ،

(١) الرمم مفردها رمة . وهي العظم البالي .

(٢) الشيم مفردها : شيمة وهي الطبيعة والخلق والسجية .

حِكْمَةً تاهت فى فهمها عقول ذوى الحِكَم . خلق الأجسام[١] من أضداد متنافرة وابتدعها[٢] بقدرته ، وألف نقائضها بحكمته ، حتى أبرزها للعيان ، متغايرة الصُّور والألوان ، متفقة[٣] الأشكال ، مخترعة على غَيْر مثال ، وخالف بين الآراء والاعتقادات ، كما خالف بين الصور والهيئات ، وأخبرنا بما فى ذلك من واضح[٤] الآيات فقال[٥] عز من قائل :

(ومِنْ آياتِه خَلْقُ السَّمَواتِ والأَرضِ واختلافُ أَلسنتِكم وأَلوانِكم ، إِنَّ فى ذلك لآيات للعالمين)[٦].

وقال جَلَّ جَلالُه : (ولا يَزَالون مُخْتلِفِينَ إلَّا مَن رَحِمَ رَبُّك . ولِذلكَ خَلَقَهم)[٧]. وبَيَّن لنا أنه قدير على غير ما أجرى به العادَةَ[٨] فقال :

---

(١) فى ب الإنسان .

(٢) فى ب ابتدعها دون واو العطف وكذا فى ط .

(٣) فى ب متقنة وكذا فى ط .

(٤) فى ط واضح الدلالات .

(٥) فى ط وقال .

(٦) الروم : آية ٢٢ .

(٧) هود آية : ١٩ وبعض ١٨ وتمام الآية (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ؛ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك . ولذلك خلقهم) .

(٨) فى ب أجرى العادة به وكذا فى ط .

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين﴾[1].

ونَبَّهنا ألطفَ تنبيه على ما فى هذا الخلاف الموجود فى البشَر ، المرْكُوز[2] فى الفِطر من الحكمة البالغة ، وأنه جعلهُ إحدى الدلائل على صحة البعث ، الذى أنكره من ألْحَدَ فى أسمائه ، وكفر بسوابغ نعمائه ، فقال - وقولُه الحقُّ ، ووعدُه الصدقُ - ﴿ وأَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيمَانِهِم لا يَبْعثُ اللهُ من يَمُوتُ . بَلَى[3] وَعْدا عليه حَقًّا . ولكنَّ أَكثرَ الناسِ لا يَعْلَمون . لِيُبَيِّنَ لَهُم الذى يَخْتَلِفُون فيه . ولِيَعْلَمَ الذين كفروا أَنَّهم كانوا كاذِبين ﴾[4].

وهذه الآية أحدُ ما تَضَمَّنه القرآن العزيز من الأدلة البرهانية على صحة البعث ، ووَجْه البُرهَانِ المنفك من هذه الآية التى لا يَقدُرُها حق قدرها إلا العالمون ، ولا يتنبَّهُ لغامِض سرها إلا المستبصرون . أنَّ اختلاف

---

(١) الأنعام : ٣٥ .

(٢) المركوز : المثبت . من ركز الشيء فى الأرض يركزه إذا غرزه .

(٣) فى الأصل : بلا بالألف .

(٤) النحـل : ٣٨ ، ٣٩ .

النَّاس[1] فى الحق لا يوجب اختلاف الحق فى نفسه ؛ وإنما تختلف الطرقُ الموصلة إليه ، والقياسات المركبة عليه ، والحقُّ فى نفسِه واحد . فلما ثبت أنَّ ها هنا حقيقة موجودة لا مَحالةَ ، وكان لا سبيل لنا فى حياتنا هذه إلى الوقوف عليها وقوفا يوجب لنا الائتلاف ، ويرفع عنا الاختلاف – إذ كان الاختلاف مركوزا فى فِطَرِنا ، مطبوعاً فى خِلَقنا ، وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الخلقة ، ونَقْلِنا إلى جِبِلَّة[2] غيرِ هذه الجِبِلَّة – صَحَّ ضرورة أن لنا حياة أُخرى غير هذه الحياة ، فيها يرتفع الخلاف والعِنَاد ، وتزول من صدورنا الضغائن الكامنة والأَحقاد ، وهذه هى الحال التى وعدنا الله[3] بالمصير إليها فقال :

(ونَزَعْنَا ما فى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إخْوانًا على سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ)[4].

---

(١) فى ط اختلاف المختلفين .

(٢) الجبلة بكسر الجيم والباء وتشديد اللام المفتوحة : الخلقة . يقال جبل الله الخلق : خلقهم ، وجبله على الشىء طبعه عليه . وجبلته بكسر الجيم وسكون الباء : أصله وطبيعته .

(٣) فى ب وط زيادة تعالى .

(٤) الحجر : ٤٧ .

ولا بُدَّ من كَوْن ذلك بالاضطرار ، إذْ كان وجود الخلاف يقتضى وجودَ الائتلاف ، لأَنه ضرب ونوع من المضاف . وكان لابد من حقيقة . وإن لم نقل ذلك صرنا إلى مذهب السُّوفُسطَائية فى نفى الحقائق .

فقد صار الخلاف الموجود فى العالم – كما ترى – أَوضح الدلائل على كون[1] البعث الذى ينكره المنكرون ، وينازع فيه الملحدون[2] .

فسبحان من أودع[3] كتابه العزيز تصريحًا وتَلْوِيحًا كل لطيفة لمن قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِه ، وَوُفِّق لفهم غوامِض سِرِّه .

وصلى الله على من هدانا به من الضَّلالة ، وعَلَّمنا بعد الجهالة ، وإياه نسأَل أن يوفِّقَنا لاقتفاءِ آثاره ، حتى يُحِلَّنا دار الكرامة فى جواره .

وإنى لما رأَيت الناس قد أَفرطوا فى التأْليف ، وأَمَلُّوا الناظرين بأَنواع[4] التصنيف ، فى أَشياء معروفة ، وأَساليب

(١) أى وجــود .
(٢) فى ط الملحدون الكافرون .
(٣) فى ط أودع لنا .
(٤) فى ط فى أنواع .

مألوفة[1] ، صرفت خاطرى إلى وضع كتاب فى أسباب الخلاف الواقع بين الأُمة ، قليل النظير ، نافع للجمهور ، عجيب المنزع ، غريب المقطع ، يشبه المخترع وإن كان غير مخترَع ، ينتمى إلى الدين بأدنى نَسَب ، ويتعلق ١ من اللسان العربى بأقوى سبب ، ويخبر من تأمل غرضه ومقصدهِ بأن الطريقة الفقهية مفتقرة إلى علم الأدب ، مُؤَسَّسَةٌ على أُصول كلام العرب .

وأنَّ مَثَلَها ومثَله قول أبى الأسود الدؤلى :

فإلاَّ يكنها أو تكنه فإنه ... أخوها غَذَتها أُمهُ بلبانها[2]

---

(١) فى ط زيادة « يغنى بعضها عن بعض » .

(٢) قبل هذا البيت :

دع الخمر يشربها الغواة فإننى ... رأيت أخاها مغنيا بمكانها

يخاطب أبو الأسود مولى له كان يحمل تجارة له إلى الأهواز ، وكان يكثر من الشراب ، فاضطرب أمر التجارة فقال له هذين البيتين يحضه على شرب النبيذ وترك الخمر للإجماع على تحريمها وجعل الزبيب أخاً للخمر لأن أصلهما الكرمة ، واستعار اللبان لما ذكره من الأخوة ، واللبان للآدميين واللبن لغيرهم ولذلك يقال هو أخوه بلبان أمه ولا يقال بلبن أمه ، وقد يكون اللبان جمع لبن فى غير هذا الموضع . هكذا قال الأعلم . وأبو الأسود هو ظالم بن عمرو من رجال البصرة كان علوى الرأى وممن أسس علم العربية وهو أول من قام بضبط المصحف توفى سنة ٦٩ هـ . شواهد سيبويه ١-٢١ خزانة الأدب ٢ - ٤٢٦ .

وليس غرضى فى كتابى هذا أن أتكلم فى الأسباب التى أوجبت الخلاف الأعظم بين مَنْ سَلَفَ وَخَلَفَ من الأُمم ، وإنما غرضى أن أذكر الأسباب التى أوجبت الخلاف بين أهل ملتنا الحَنِيفيَّة ، التى جَعلنا الله من أهْلِها ، وهدانا إلى واضح سبلها ، حتى صار من فقهائهم المالكى[1] والشافعى[2] والحَنَفِىّ[3] ومن ذَوِى مقالاتهم

---

(١) ب و ط زيادة : والأوزاعى .

(١) والمالكى : نسبة إلى الإمام مالك بن أنس فقيه الحجاز ، وكتابه الموطأ من أجل الكتب حديثا وفقها . قال الإمام الشافعى عنه : إذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وما أحد أمن على من مالك توفى سنة ١٧٩ هـ زمن هارون الرشيد . انظر طبقات المالكية .

(٢) الشافعى نسبة إلى الإمام محمد بن ادريس الشافعى ينتهى نسبه إلى قريش ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ وحمل إلى مكة وبها حفظ القرآن وتلقى العلم وحفظ موطأ مالك وعرضه عليه فى المدينة ، ورحل إلى بغداد عدة سنوات وفيها ألف مذهبه القديم وأخيراً رحل إلى مصر سنة ٢٠٠ هـ وبها توفى سنة ٢٠٤ هـ وألف كتاب الأم فى الفقه ورسالة فى الأصول .

انظر شذرات الذهب ٢ ـ ١٠ وحسن المحاضرة وطبقات الشافعية .

(٣) الحنفى : نسبة إلى الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان بن ثابت التيمى الكوفى كان جده مملوكاً لبنى تيم الله بن ثعلبة ، ثم أعتق فصار ولاؤه لهم ولد عام ٨٠هـ وهو فقيه العراق وإمام أهل الرأى تفقه على حماد بن أبى سليمان قال الشافعى : الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة توفى سنة ١٥٠ هـ .

انظر تاريخ بغداد ١٣ ـ ٣٢٤ .

والأوزاعى : نسبة إلى إمام أهل الشام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى ، ـ

ـ والأوزاع بطن من همدان ولذا يقال إنه عرفي يمني ولد ببعلبك ، وذهب إلى اليمامة وسمع من شيوخها ، ورحل إلى مكة ، وأخذ عن عطاء بن أبي رباح وابن شهاب الزهري ثم رحل إلى البصرة وسمع من شيوخها ثم نزل دمشق فبيروت وتوفي سنة ١٥٧ هـ . وكان في الفقه أميل إلى أهل الحديث وكان يقول : اصبر على السنة وقف حيث وقف القوم وليسعك ما وسعهم . ضحى الإسلام . جـ٢ ص ٩٨

(١) الجبري منسوب إلى طائفة الجبرية ، وقوام مذهبهم نفي الفعل حقيقة عن العبد إذ لا استطاعة له . وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله الأفعال فيه على حسب ما يخلق في الجمادات ، وتنسب إليه الأفعال مجازاً . ويظهر من تاريخ هذه النحلة أن أصل دعاتها من اليهود والفرس ، واعتنقها وتبناها جهم بن صفوان زعيم الجهمية . والقول بالجبر مناف للشرائع ودعوة الرسل ، والثواب والعقاب ، والأمر والنهي .

انظر شفاء الغليل لابن القيم . والملل والنحل للشهرستاني .

(٢) والقدري : منسوب إلى القدرية ، وهم طائفة مذهبهم على النقيض من مذهب الجبرية يعتقدون أن كل فعل للإنسان إنما هو بإرادته المستقلة عن إرادة الله ، نفوا عن الله القدر بمعنى العلم والتقدير ، كما نفوا الإرادة الأزلية والعلم الأزلي القديم ، وسموا قدرية لأنهم نفوا القدر عن الله وأثبتوه للعبد ، فسموا لذلك قدرية إذ جعلوا كل شيء لقدرة الإنسان وإرادته . وكان زعيم الطائفة في العراق معبدا الجهني وفي الشام غيلان الدمشقي .

(٣) المشبه : المشبهة هم الذين شبهوا ذات الله تعالى في أوصافه بصفات الحوادث وقالوا إن الله يرى يوم القيامة مكيفا محدوداً ، وقالوا يد الله يد جارحة ، وله أعضاء من يد ورجل ورأس ويقال لهم المجسمة . وأجازوا على الله الملامسة والمصافحة .

الملل والنحل ١ ـ ١٤٩ ، تاريخ الفرق الإسلامية ص١٩٨

والجَهْـمِيُّ (١) ، ومِـنْ شِـيَعِهِمْ الزَّيْـدى (٢) ، والرافِضى ، والسَّبئِىّ (٣) ، والغُرابى (٤) ، والمُخَمِّس (٥) ،

(١) الجهمى : منسوب إلى جهم بن صفوان رأس فرقة من الجبرية — وقد تقدم ذكره — ظهرت بدعته بترمذ وقتله مسلم المازنى بمرو فى آخر عهد بنى أمية وكان يقول : لا يجوز أن يوصف البارى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضى تشبيها فنفى كونه حيا عالمـا وأثبت كونه قادرا فاعلا خالقاً لأنه لا يوصف شىء من خلقه بالفعل والقدرة والخلق .

انظر الملل والنحل ومقالات الإسلاميين .

(٢) الزيدى : الزيدية فرقة من الشيعة تنسب إلى زيد بن على بن زين العابدين ، وقد خرج على هشام بن عبد الملك فقتل وصلب . وهذه الفرقة أقرب طوائف الشيعة إلى الجماعة الإسلامية ، فهم لم يقدسوا الأئمة ، ولم يؤلهوهم ، بل جعلوهم كسائر الناس ، ولكنهم أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان المتقدمون منهم يجوزون إمامة المفضول ، ويعترفون بإمامة الشيخين أبى بكر وعمر ثم جاء المتأخرون منهم فقرروا أنه لا يجوز إمامة المفضول ، ورفضوا إمامة الشيخين رضى الله عنهما وهم الذين يسمون : الرافضة . والمذهب الزيدى قائم الآن باليمن وهو أشبه بمذهب المتقدمين .

(٣) السبئى : السبئية فرقة من غلاة الشيعة زعيمها عبد الله بن سبأ . كان يهودياً أسلم أيام عثمان رضى الله عنه وتنقل فى بلاد المسلمين يثير الفتن ، واستقر فى مصر وكان ممن حرض على قتل عثمان ، وكان يقول إن عليا وصى محمد ، كما كان يقول بالرجعة ، ولمـا قتل على قال : إنه لم يقتل ، وإنما صعد إلى السماء ، وإن الرعد صوته ، ومن السبئية من غالى وقال : إن الإله حل فى على

انظر الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى .

(٤) الغرابى : نسبة إلى فرقة الغرابية وهم طائفة من غلاة الشيعة قالوا : إن الرسالة كانت لعلى ولكن جبريل اشتبه عليه الأمر فأخطأ ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم لأن عليا كان يشبهه كما يشبه الغراب الغراب . ولهذا سموا غرابية

انظر الفصل لابن حزم .

(٥) المخمسى : المخمسة فرقة من الشيعة من الفرق المنحرفة عن الحق زعمت أنـ

والمحمَّدِى[1] وغير هؤلاء من الفرق الثلاث والسبعين التى نص عليها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ، ولا غرضى أيضاً[2] أن أَحْصُرَ أصناف المذاهب والآراء ، وأناقض ذوى البدع المضُلِّلَه[3] والأهواء . لأن هذا الفن من العلم قد سبق إليه ، ونبه فى مواضع كثيرة عليه .

وإنما غرضى أن أُنَبِّه على المواضع التى منها نشأ الخلاف بين العلماء حتى تباينوا فى المذاهب والآراء .

وأنا أسترشد الله إلى سبيل الحق ، وأستهديه ، وأسأله العَوْن على ما أحاوله وأنويه ، وأرغب إليه فى أن يعصمنى من الزَّلَل فيما أقوله وأدعيه[4] إنه وَلِى الطَّوْل ومُسْديه ، لا رب سواه ولا مَعْبود حاشاه .

ــ محمداً صلى الله عليه وسلم وفاطمة وعليا والحسن والحسين شىء واحد لا فضل لواحد منهم على باقيهم وأن الروح تجرى بينهم بالسوية . ومن عجيب أمرهم أنهم زعموا أن فاطمة لم تكن امرأة وكرهوا أن يقولوا فاطمة بالتاء . راجع شرح المختار من لزوميات أبى العلاء ١٦٦ .

(١) المحمدى : المحمدية فرقة من الشيعة مالت إلى تثبيت أمر محمد بن عبد الله ابن الحسن ، وإلى القول بإمامته وكانوا من الرافضة .
مقالات الإسلاميين ١ـ٩٩

(٢) كلمة أيضا ساقطة فى ط .

(٣) فى ط المضلة .

(٤) فى ب و ط وأحكيه .

ذكر الأسباب الموجبة للخلاف كم هي ؟؟

أقول – وبالله العِصْمَة – إن الخلاف عرض لأهل ملتنا من ثمانية أوجه . كل ضرب من الخلاف متولِّد منها ومتفرِّع عنها :

الأول منها : اشتراك الألفــاظ والمعانى .

الثانى : الحقيقة والمجــاز .

الثالث : الإفراد والتركيب .

الرابع : الخصوص والعموم .

الخامس : الرواية والنقل .

السادس : الاجتهاد فيما لا نص فيه .

السابع : الناسخ والمنسوخ .

الثامن : الاباحة والتوسع .

ونحن نذكر لكل نوع من هذه الأنواع أمثلة تنبه قارئ كتابنا هذا على بقيتها(١) إذ كان استيفاء جميع ذلك من المتعذر على من حاوله وبالله التوفيق .

---

(١) هكذا فى ب ، وط . وفى أ على جزء منها .

الباب الأول

فى الخلاف العارض

من جهة اشتراك الألفاظ
واحتمالاتها[1] للتأويلات الكثيرة

هذا الباب ينقسم[2] ثلاثة أقسام :

أحدها : اشتراك فى موضوع اللفظة المفردة[3].

والثانى : اشتراك فى أحوالها التى تَعرض لها من إعراب وغيره .

والثالث : اشتراك يوجبه تركيب الألفاظ وبناء بعضها على بعض .

فأما الاشتراك العارض فى موضوع اللفظة المفردة فنوعان :

اشتراك يجمع[4] معانى مختلفة متضادة ، (واشتراك يجمع معانى مختلفة غير متضادة)[5].

---

(١) فى ط واحتمالها .
(٢) فى ط ينقسم إلى ثلاثة .
(٣) فى ط الواحدة .
(٤) فى ط بجمع بالباء الموحدة .
(٥) ما بين القوسين ساقط من ب

الأول[1] كالقُرْء ، ذهب الحجازيون من الفقهاء إلى أنه الطهر ، وذهب العراقيون إلى أنه الحيض ، ولكل واحد من القولين شاهد من الحديث واللغة .

أما حجة الحجازيين من الحديث فما روى عن عمر[2] وعثمان وعائشة وزيد بن ثابت رضى الله عنهم أنهم قالوا : الأَقْرَاء : الأَطهار .

وأما حجتهم من اللغة فقول الأعشى[3] :

وفى كلِّ عامٍ أنتَ جاشمُ غَزوةٍ
تَشُدُّ لأقصاها عزيمَ عَزائكا

---

(١) فى ط فالأول .

(٢) يبدو أن هنا سقطا والصواب ابن عمر لأن هذا هو الذى ورد فى كتب السنة والفقه ففى بداية المجتهد ٢ - ٨٩ : اختلف فى الأقراء فقال قوم الأطهار ، وقال آخرون الحيض فمن قال الأطهار من فقهاء الأمصار مالك والشافعى وجمهور أهل المدينة وأبو ثور وجماعة . ومن الصحابة ابن عمر وزيد بن ثابت ، وعائشة .

ومن قال الحيض من فقهاء الأمصار : أبو حنيفة والثورى والأوزاعى وابن أبى ليلى وجماعة ومن الصحابة على ، وعمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى .

(٣) الأعشى هو أبو بصير ميمون بن قيس بن ربيعة لقب بالأعشى لضعف بصره نشأ فى منفوحة من قرى اليمامة وأدرك الإسلام ولم يسلم . واتصل بالملوك والأمراء . وكان يلقب بصناجة العرب .

أنظر الديوان ط بيروت .

مُوَرِّثَةً مالا وفى الحى رفعـــةً

لِمَا ضاع فيها من قُرُوءِ نِسَائكا[1]

وأما حجة العراقيين من الحديث فقول النبى صلى الله عليه وسلم للمستحاضة : (اقعدى عن الصلاة أيام أقْرَائِك)[2]

وأما حجتهم من اللغة فقول الراجز :

يارُبَّ ذى ضِغْنٍ علىَّ قارض

له قُـروءٌ[3] كقروء الحـــائض[4]

---

(١) هذان البيتان من قصيدة يمدح بها هوذه بن على الحنفى . وجاشم من جشم الأمر يجشمه تكلفه على مشقة . والعزيم ، والعزم : الجد . والعزاء : الصبر . والقروء جمع قرء يقال للحيض والطهـر ، والمراد هنا الطهر أى شغلة الغزو عن النساء فى طهرهن فلم يغشهن . وفى بعض الروايات : وفى الحمد رفعة .

انظر الديوان ٦٧ . الدرر اللوامع ٢ ـ ١٩٤ المحتسب لابن جنى١ ـ ١٨٣ .

(٢) هذا الحديث ورد فى مسند أحمد ٦ ـ ٤٢٠ بلفظ إن فاطمة بنت حبيش أتت النبي صلى الله عليه وسلم فشكت إليه الدم فقال : إن ذلك عرق فانظرى ، فإذا أتاك قروؤك فلا تصلى . وفى رواية لتقعد أيام أقرائها ثم لتغتسل . وفى النسائى : تجلس أيام أقرائها .

انظر الدارمى ١ ـ ٦٩٧ والمسند أيضاً ٦ ـ ٣٠٤ .

(٣) فى ب قرو . وهى رواية .

(٤) أنشده ابن الأعرابى كما فى كتاب الحيوان للجاحظ ٦ ـ ٦٦ يا رب مولى حاسد مباغض ــ على ذى ضغن وضب قارض ــ له قروء كقروء الحائض .

وقد حكى يعقوب[1] بن السكيت وغيره من اللغويين أن العرب تقول :

أَقْرَأت المرأةُ إذا طَهُرت ، وأقرأتْ إذا حاضت .

وذلك أن القُرءَ فى كلام العرب معناه : الوقت[2] ، فلذلك صاح للطهر وللحيض معاً ويدل على ذلك قول الشاعر :

شَنِئتُ العَقْـر عَقْرَ بنى شُلَيل
إذا هبت لقارئها الريـاح[3]

= ويروى : جاهد بدل حاسد وفارض بدل قارض . والفارض المسن من الإبل . يقول : لعداوته أوقات تهيج فيها مثل وقت الحائض . وقال الجاحظ كأنه ذهب إلى أن حقده يخبو تارة ثم يستعر ثم يخبو ثم يستعر . ويقول : شبهوا الحقد الكامن فى القلب الذى يسرى ضرره ، وتدب عقاربه بالضب ، فسموا ذلك الحقد ضبا . ويروى قرو بتسهيل الهمزة وإدغام الواو فيها .

(١) هو يعقوب بن إسحاق المعروف بالسكيت ، فالسكيت لقب أبيه إسحاق ، كان يؤدب الصبيان مع والده ، وأخذ النحو عن البصريين والكوفيين ، وكان عالمـا بالقرآن وبنحو الكوفيين ، وهو من أعلم الناس باللغة والشعر توفى سنة ٢٤٤ هـ .

انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ٢٠٢ .

(٢) انظر لسان العرب (قرأ) وقرء يجمع على أقراء وقروء وأقرؤ ولكن سيبويه أنكر أقراء ، وقال :استغنوا عنه بفعول وهو قروء .

انظر سيبويه ٢ ـ ١٧٩ وهذا يخالف ما ورد فى الحديث : أقعدى عن الصلاة أيام أقرائك .

انظر سيبويه جـ٢ ص ١٧٩

(٣) رواية اللسان كرهت ، العقر بدل شنئت . والعقر موضع . ولقارئها أى وقت هبوبها ويروى لقارئها بالهمزة . قال أبو الفتح: يقال=

وقد احتج بعض الحجازيين لقولهم بقوله تبارك وتعالى : (ثلاثةَ قروء)[١] فأثبت الهاء فى ثلاثة فدل ذلك على أنه أراد الأطهار ، ولو أراد الحيض لقال ثلاث قروء ، لأن الحيض[٢] مؤنثة . وهذا لا حجة فيه عند أهل النظر . إنما الحجة لهم فيما[٣] قدمناه .

وإنما لم تكن فيه حجة لأنه لا ينكر أن يكون القرء لفظا مذكراً يُعْنَى به المؤنث ، ويكون تذكير ثلاثة حملا على اللفظ دون المعنى ، كما تقول العرب : جاءنى

أعطيته ما سأل لطلبه أى عند طلبه أو مع طلبه . وفعلت هذا لأول وقت أى عند أول وقت أو معه ، وفى التاريخ لخمس خلون أى عند خمس أو مع خمس ، ومنه قول الشاعر شنئت العقر البيت : أى عند وقتها ، ومن ذلك قوله تعالى : لا يجليها لوقتها إلا هو .

وشليل بضم الشين فى المحتسب لابن جنى ، ولكنه فى الأصل وفى اللسان بفتح الشين ، وهو جد جرير بن عبد الله البجلى . والشاعر هو مالك ابن الحارث الهذلى .

انظر اللسان (عقر وقرأ) أشعار الهذليين ٣ ـ ٨٣ ، المحتسب لابن جنى ٢ ـ ٢٧٢ .

(١) البقرة : ٢٨٨ وتمام الآية : (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) .

(٢) فى ب و ط الحيضة .

(٣) فى ب و ط ما قدمناه .

ثلاثة أَشخُصٍ وهم يَغْنُون نساءَ[1] ، والعرب تحمل الكلام تارة على اللفظ وتارة على المعنى ، أَلا ترى إلى قراءة القُرّاء : « بَلَى قد جاءَتْكِ آياتى »[2] بكسر الكاف وفتحها[3]

ووقوع الأَسماء على المسَمَّيات فى كلام العرب ينقسم أَربعة أَقسام :

---

(١) فى حاشية الصبان ٤-٦٣ نقل السيوطى عن ابن هشام وغيره أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثاً ، أو بالعكس ، فإنه يجوز فيه الوجهان . وهذا هو ما قرره ابن السيد ، ويؤكد كلام ابن السيد ما ذكره المبرد فى المقتضب ٢ - ١٨٦ (وتقول عندى ثلاثة أنفس ، وإن شئت قلت ثلاث أنفس . أما التذكير فإذا اعتبر بالنفس المذكر وعلى هذا تقول عندى نفس واحد ، وإن أردت لفظها قلت : عندى ثلاث أنفس ، لأنها على اللفظ تصغر : نفيسة . وعلى هذا قوله تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة) . (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله (وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها . (على مخاطبة النفس) .

(٢) الزمر : آية ٩ وتمام الآية (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) .

(٣) قال فى البحر المحيط : قرأ الجمهور : قد جاءتك بفتح الكاف وفتح تاء ما بعدها خطابا للكافر ذى النفس . وقرأ ابن يعمر والجحدرى وأبو حيوة والزعفرانى والشافعى وغيرهم بكسر الكاف والتاء خطاباً للنفس . وهى قراءة أبى بكر الصديق وابنته عائشة رضى الله عنهما ، وروتهما أم مسلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم ٧ - ٤٣٦ وانظر الشواذ لابن خالويه سورة الزمر

أحدها : أن يكون المسَمَّى مذكرا واسمه مذكر كرجل مسمى[1] بزيد أو عمرو

والآخر : أن يكون المسمَّى مؤنثاً ، واسمه مؤنث كامرأة تُسمَّى فاطمة .

والثالث : أن يكون المسمى مؤنثا ، واسمه مذكر كامرأة تسمى : جعفر وزيد[2]

قال الشاعر :

يا جعفرٌ يا جعفرٌ يا جعفرُ ... إن أكُ دَحْداحاًفأَنتِ أقصُر[3]
أو أكُ ذاشيب فأَنِت أكبرُ ... غَرَّك سِرْبالٌعليك أحمرُ
ومِقْنَعٌ من الحرير أصفرُ ... وتحتَ ذاكِ سوأة لو تُذكر

والرابع : أن يكون المسمى مذكرا ، واسمه مؤنث كرجل يسمى طلحة أو

وهذا لا يخص الأسماء الأعلام دون الأجناس والأنواع. وهكذا مذهب العرب فى الصفة والموصوف ، فربما كان

---

(١) فى ط يسمى

(٢) فى ط تسمى بجعفر وزيد .

(٣) حكى المبرد فى الكامل ١ ـ ٨٥ قال كان أعرابى يختلف إلى مغنية لآل سليمان فأومأت إليه يوماً تعيبه بالقصر ، فقال هذه الأبيات . والدحداح القصير والمقنع ما تغطى به المرأة رأسها .

الموصوف مطابقاً لصفته فى التذكير والتأنيث ، كقولهم : هذا رجل قائم ، وهذه امرأة قائمة .

وربما كان مخالفا لصفته فى التذكير والتأنيث كقولهم رجل ربعة(١) وعلاّمة ونسّابة ، وفى المؤنث امرأة حاسِر(٢) وعَاشق قال ذو الرمة :

فَلَو أَنَّ لُقْمانَ الحكيم تعرضت
لِعَيْنيه مَىٌّ حاسرا كاد يَبْرَقُ(٣)

---

(١) علل بعض علماء اللغة وجود التاء فى ربعة مع المذكر بملاحظة كونها صفة لمؤنث مقدر ، أى نفس ربعة ، أما علامة ونسابة فليست التاء فيهما للتأنيث ، وإنما هى لتأكيد المبالغة فى الوصف .
انظر شرح الرضى للكافيه ٢ ـ ١٥٢ ، ١٥٥ .

(٢) يقال رجل حاسر ، وامرأة حاسر ، والرجل الحاسر من لا عمامة على رأسه ، أو لا درع عليه ، ولا بيضة على رأسه . والمرأة الحاسر : هى التى حسرت عنها درعها ، وكل مكشوفة الرأس والذراعين حاسر .
انظر اللسان (حسر) .

ويقال امرأة عاشق وعاشقة . وسقوط التاء فى عاشق وحاسر كسقوطها فى عانس ، وقد علل العلامة الرضى ذلك بأن هذه الصفات يقصد منها الثبوت أحيانا فتجرد عن التاء غالبا . ويقصد منها الحدوث أحيانا فتلحقها التاء كما فى مرضع ومرضعة .
شرح الكافية ٢ ـ ١٥٠ .

(٣) فى ب ولو أن لقمان وهى رواية الديوان: وورد فيه سافراً بدل حاسراً. وسافرا أى بارزة الوجه . يقال سفرت المرأة: إذا ألقت عن وجهها النقاب . وبرق الرجل يبرق إذا بقى مفتوح العين كالمتحير .

وذو الرمة هو غيلان بن عقبة العدوى المتوفى سنة ١١٧ﻫ كان معاصراً لجرير والفرزدق وكانا يغبطانه على شعره، ويقول عنه أبو عمرو بن العلاء: إن الشعر فتح بامرىء القيس، وختم بذى الرمة .
راجع شرح ديوان ذى الرمة ١ ـ ٤٦١ .

فقد تبين [1] أنه لا حجة فى دخول الهاء فى ثلاثة .

ومن الألفاظ المشتركة الواقعة على الشىء وضده قوله تعالى : (فأَصبَحَتْ كالصَّريم) [2].

قال بعض المفسرين [3] : معناه كالنهار المضىء ، بيضاء لا شىء فيها :

وقال آخرون كالليل المظلم سوداء لا شىء فيها

وكلا القولين موجود فى اللغة ، أما من قال : كالنهار المضئ فحجته قول زهير :

بَكَرْتُ عليه غُدوة فرأيتُه
قُعُودًا لديه بالصَّرِيم عَوَاذِلُه [4]

---

(١) فى ط تبين أن لا .

(٢) سورة القلم : آية ٢٠ .

(٣) قال ابن عباس : كالرماد الأسود ، والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة . وقال الثورى : كالصبح من حيث ابيضت كالزرع المحصود ، وقال الأخفش : كالصبح انصرم من الليل ، وقال المبرد : كالنهار فلا شىء فيها ، وقال شمر : الصريم : الليل . والصريم : النهار . أى ينصرم هذا عن ذاك وذاك عن هذا . وقال الفراء والقاضى منذر بن سعيد : الصريم : الليل من حيث اسودت جنتهم . وفى الكشاف : الصريم : الليل أى احترقت فاسودت ، وقيل : النهار أى يبست وذهبت خضرتها أو لم يبق شىء فيها من قولهم : بيض الإناء إذا أفرغه ولم يبق فيه شيئا
انظر البحر المحيط جـ٨ ص٣١٢ الكشاف جـ٤ ص ٥٩٠

(٤) هذا البيت من قصيدة يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر مطلعها :
صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله

يعنى الصباح وأما من قال كالليل فحجته قول الراجز :

تَهوى هُوِىَّ أنجم الصريم[1] .

وقال آخر :

كأنا والرحال على صِوار برَمْل خُزَاق أسْلَمَه الصريم[2]

قال بعضهم معناه : انحسر عنه الرملُ ، وقال قوم معناه : خرج من الليل وانجلى[3] عنه كما قال النابغة .

= والصريم : الصبح أى يسكر بالعشى فإذا أصبح وقد صحا منه .

والشاعر زهير بن ربيعة الملقب بأبى سلمى . وأسرته كلها شاعرة وهو من طبقة الشعراء الجاهليين الأولى وابنه كعب بن زهير أحد شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

انظر الديوان ص ١٤٠ ط . بيروت .

(١) المراد بالصريم فى الرجز : الليل بدليل ذكر الأنجم .

(٢) القائل هو : برج بن مسهر بن جلاس أحد بنى جديلة ، وهو من معمرى الجاهلية ، وهذا البيت من مقطوعة أولها :

ونَدمان يزيد الكأس طيبـــا

يصف لهوه مع الندمان آخر الليل ، شبه ركائبهم بقطيع من البقر بالرمل المذكور أسلمه الصريم إلى الصيادين والكلاب فخفت وعدت . والصريم استعمل فى الصبح والليل جميعاً لأن كل واحد منهما ينصرم من صاحبه وقت السحر وصوار بكسر الصاد . وخزاق : موضع . والبيت من أبيات الحماسة انظر شرح الحماسة للمرزوقى ٣ ـ ١٢٧٢ .

(٣) فى (ا) انجلا بالألف وهو خلاف الصواب .

حتى غدا فى بياض الصبح مُنْصَلِتًا
يَقْرُو الأَماعِزَ مِنْ لُبْنَانَ والأَكَما(١)

وإنما سمى كل واحد منهما صريما ، لأنه ينصرم إذا وافى الآخرُ .

والمعنى أيضاً يشهد لكل واحد من القولين : لأن العرب تقول : لك بياض الأرض وسوادها ، يعنون بالبياض ما لا عمارة فيه ، وبالسواد ما فيه العمارة . فهذا ما يحتج(٢) به لمن ذهب إلى معنى البياض .

ومن ذهب إلى معنى السواد فإنما أراد أنها احتَرَقتْ بريح صِرٍّ أو نار كقوله تعالى : (فأَصابها إعصار فيه نار فاحْتَرَقَتْ)(٣)

---

(١) رواية الديوان: حتى غدا مثل نصل السيف منصلتا . يصف الشاعر ثوراً وحشياً أى يبرق مثل نصل السيف ، ومنصلقا أى حادا ، يقرو : يتبع. الأماعز : الأماكن الصلبة الكثيرة الحصى . ولبنان: جبال. والأكم مفرده أكمة. والنابغة هو أبو أمامة زياد بن معاوية الذبيانى ، وهو أحد شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين . كان منادما للنعمان ملك الحيرة واتصل بملوك غسان بالشام ومدحهم .

انظر الديوان ٦٥ .

(٢) فى ط وهذا لا يحتج به لمن ذهب إلى معنى البياض . وهو خطأ .

(٣) البقرة آية : ٢١٦ .

ومن هذا النوع قول أبى بكر رضوان الله عليه : طوبى لمن مات فى النّأْنأَةِ[1] .

فإنه يَحْتمل أن يريد أول الإسلام عند قوة البصائر وقبل[2] وقوع الخلاف .

ويحتمل أن يريد[3] آخر الإسلام إذا ضعفت البصائر ، وكثرت البدع والخلاف ، ويدل على صحة المعنيين جميعاً قوله صلى الله عليه وسلم : إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء[4] .

والنأْنأَة عند العرب : الضَّعف لا يُخص به الصغَرُ دون الكبر قال امرؤ القيس :

لعمرك ما سَعْدٌ بخُلَّةِ آثِمٍ
ولا نَأْنَأٍ يومَ الحِفَاظِ ولا حَصِر[5]

---

(١) فى النهاية لابن الأثير ٥ ـ ٣ فى النأنأة أى فى بدء الإسلام حين كان ضعيفاً قبل أن يكثُر أنصاره والداخلون فيه يقال نأنأت من الأمر نأنأة إذا ضعفت عنه وعجزت ، ويقال نأنأته بمعنى نَهْنهته إذا أخرته وأمهلته .

(٢) فى ط الواو ساقطة .

(٣) فى ط به .

(٤) رواه مسلم فى باب الإيمان عن ابن عمر ورواه عن أبى هريرة بلفظ : إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ . ورواه الترمذى فى باب الإيمان ، وابن ماجه فى باب الفتن .

(٥) الخلة بالضم : الصداقة والمودة المختصة التى ليس فيها خلل . والخلة بالضم: الصديق الذكر والأنثى والواحد والجمع سواء لأنه فى الأصل ـ

وتأوله أبو عُبيد على أنه أراد أول الإسلام ، وليس في لفظ الحديث ما يقتضي ذلك . على أن بعض الرواة قد روى : في النأنأة الأولى . فإن كان هذا[1] محفوظا فالقول ما قال أبو عُبيد .

ومن هذا النوع قوله صلى الله عليه وسلم : (قصوا الشوارب وأعفوا اللحى)[2] .

قال قوم معناه : وفروا وكثروا . وقال آخرون : قصروا وأنقصوا وكلا القولين له شاهد من اللغة .

أما من ذهب إلى التكثير فحجته قول الله عز وجل : (حتى عَفَوْا[3]) .

= مصدر ولعل هذا هو المراد في البيت . والنأنأ : الضعيف المقصر . والحفاظ : الغضب والأنفه عند الحرب . والحصر : الذي يضيق صدره عند اشتداد الأمور والبيت من قصيدة يمدح فيها امرؤ القيس سعد بن الضباب الإيادي .

وامرؤ القيس بن حجر الكندي أمير شعراء الجاهلية . وهو من أصحاب المعلقات ، كان أسبق الشعراء لابتكار المعاني ، وكان أبوه حجر ملكاً على بني أسد فقتلوه ، وقام هو يطلب بثأره .

انظر الديوان ص ١١٢ ، مجالس العلماء للزجاجي ص ٣٠ .

(١) في ط فإن صح هذا .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ، ورواه البخاري عن ابن عمر في باب اللباس بلفظ : انهكوا الشارب وأعفوا اللحى ، وفي رواية عن ابن عمر : خالفوا المشركين وفروا اللحى وأحفوا الشارب .

(٣) الأعراف : ٩٥ والآية (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا) قال أبو حيان : عفوا : كثروا وتناسلوا وقال الحسن : سمنوا . وقال

وقال جرير :

ولكنـــا نُعِضُّ السيف منهـــا
بأَسْوُقِ عافيات اللحم كُوم (١)

وأما من ذهب إلى الحذف والتقصير فحجته قول زهير :

تَحمَّل أهلُهــــا منها فبـــانُوا
على آثارِ من ذهب العَفَـــاءُ(٢)

فهذه جملة من اللفظ المشترك الواقع على معان مختلفة متضادة .

—الزمخشرى كثروا فى أنفسهم وأموالهم من قولهم عفا النبات وعفا الشحم والوبر إذا كثرت ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : وأعفوا اللحى .
انظر البحر المحيط ٤ ـ ٣٤٧ اللسان مادة عفا .

(١) هكذا نسب هذا البيت لجرير فى جميع النسخ . ولم نعثر عليه فى ديوانه وبالبحث وجد هذا البيت للبيد وهو موجود فى ديوانه . وأسوُق : جمع ساق ، وعافيات اللحم : كثيرات . كوم : جمع كوماء وهى عظيمة السنام . ونعض السيف : نضرب به .
ولبيد : هو لبيد بن ربيعة العامرى أدرك الإسلام وأسلم وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتمثل بقوله :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعـيم لا محالة زائـل

انظر ديوان لبيد ص ١٨٠ ط . بيروت .

(٢) عفا أثره عفاء : ذهب وهلك ، والعفاء بالفتح : التراب . وفى الحديث إذا كان عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء . قال أبو عبيد : العفاء : التراب ، وأنشد بيت زهير . والشاعر يقصد الدعاء ضجراً مما يقاسى من الشوق ، والمعنى من ذهب لم أحزن عليه ولم أشفق لذهابه .

وأما اللفظ المشترك الواقع على معان مختلفة غير متضادة فنحو قوله تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسولَهُ وَيسْعَوْن فى الأَرض فساداً [1] إلى آخر الآية

ذهب قوم إلى أن (أَو) هاهنا للتخيير كالتى فى قولك جالس زيداً أَو عمرا .

فقالوا السلطان مخير فى هذه العقوبات يَفْعَلُ بقاطع السبل أَيَّها شاء .

وهو قول الحسن البصرى وعطاء وبه قال مالك

وذهب آخرون إلى أَن (أَو) هاهنا للتفصيل والتبعيض [2] : فمن حارب وقَتَل وأَخذ المال صُلِب ، ومن قَتَلَ ولم يأخذ المال قُتلَ ومن أخذ المالَ ولم يقتل قُطِعَتْ يدُه ورجله . وهو قول أَبى مِجْلَز [3] وحجاج [4] بن أَرطاة عن

---

(١) المائدة : آية ٣٣ وتمام الآية : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) .

(٢) فى ط والتعيين وهو تحريف .

(٣) أبو مجلز : لاحق بن حميد السدوسى البصرى روى عن أبى موسى الأشعرى والحسن بن على وابن عباس ، كان ثقة وهو تابعى .
تهذيب التهذيب ١١-١٧١

(٤) حجاج بن أرطاة : أحد الأعلام سمع عن الشعبى حديثاً واحداً ومن الحكم وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن شعيب وطائفة ولى قضاء البصرة .
وقيل : له نحو من ستمائة حديث توفى سنة ١٤٩ هـ .
تذكرة الحفاظ ١-١٨٦ .

ابن عباس ، وبه قال الشافعى وأبو حنيفة[١] ، واحتجوا بحديث رواه عثمان وعائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم[٢] . (لا يحل دم امرئ مسلم إلا باحدى ثلاث : زنى[٣] بعد إحصان ، أو كفر بعد إيمان ، أو قتل نفس بغير نفس)[٤] .

واحتجوا من اللغة بأن العرب تستعمل أو للإفراد والتفصيل ، فيقولون :

اجتمع القوم فقالوا حارِبُوا أو صالحوا . أى قال بعضهم كذا ، [وبعضهم كذا][٥]

---

(١) فى ط وبه قال أبو حنيفة والشافعى رحمهما الله .
انظر بداية المجتهد ٢-٤٥٦ . والبحر المحيط لأبى حيان ٣-٤٧٠ .

(٢) فى ط زيادة (أنه قال) .

(٣) زنى كتبت هكذا فى ا ، ب بالياء وفى ط زنا بالألف وكلاهما صحيح لأن الألف الثالثة فى اسم أو فعل إن كانت عن ياء كتبت ياء أو عن واو كتبت ألفا ، ومنهم من يكتب الألف الثالثة ألفا مطلقا .
انظر شرح الشافية للرضى ٣ - ٣٣٢ .

(٤) رواه أحمد والستة عن ابن مسعود بلفظ : لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة . ورواه أحمد والترمذى عن عثمان وعن عائشة بلفظ لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث : رجل زنى بعد إحصان ، أو ارتد بعد إسلام أو قتل نفساً بغير حق .
انظر كشف الخفاء ٢ - ٥١٢

(٥) ما بين القوسين ساقط فى ط .

ومنه قول الله تعالى : (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدُوا)[1] وليس في الفِرق فرقةٌ تُخيَّر بين اليهودية والنصرانية وإنما المعنى أن بعضهم – وهم اليهود – قالوا كونوا هودا ، وبعضهم – وهم النصارى – قالوا كونوا نصارى

فهذا تفصيلٌ لا شك فيه ، والعرب تَلُفُّ الكلامين المختلفين ، وترمى بتفسيرهما جملة ، ثقة بأن السامع يرد إلى كل مُخْبَر عنه [بكل][2] ما يليق به ، قال الله تعالى : (ومن رحمته جعل لكم الليلَ والنهارَ لتسكنُوا فيه ولتَبتَغُوا منْ فضله)[3] .

ونحوه قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسـا
لدى وكرها العُنابُ والحَشَفُ البالى[4]

(١) البقرة : آية ٣٥ .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى ط .

(٣) القصص : ٧٣ .

(٤) العناب نوع من التمر معروف ، والحشف : ردئ التمر والبالى منه . وهذا البيت من قصيدة مطلعها :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البـالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

انظر الديوان ص ٣٨ – شواهد العينى ٣ - ٢١٦ .

ولو جاء هذا الكلام مفصلاً لقال : كأن قلوب الطير رطبا العناب ، ويابسا الحشف البالى وكذلك الآية لو جاءت مفصلة لقال : جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبتغوا من فضله .

واختلفوا فى النفى من الأرض ما هو ؟

فقال الحجازيون : ينفى من موضع إلى موضع . وقال العراقيون[1] : يسجن ويحبس والعرب تستعمل النفى بمعنى السجن . قال بعض المسجونين :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها
فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيـــا
إذا جاءنا السَّجَّانُ يوما لحاجـة
عجبنا وقلنـــا جاء هذا من الدنيـــا

ومن هذا النوع قوله صلى الله عليه وسلم : « أسرعكُنَّ لَحَاقا بى أطولكن يدا »[2].

---

(١) قال أبو حنيفة : النفى : السجن . وذلك إخراجه من الأرض قال الشاعر وهو مسجون :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها . . .

انظر البحر المحيط ٣ ـ ٤٦٩ .

(٢) رواه البخارى : باب الزكاة ٢ ـ ٩٥ . ومسلم فى باب فضائل الصحابة ٦ـ١٤٤ . والنسائى فى باب الزكاة وفضل الصدقة ولفظ البخارى عن عائشة =

قاله لنسائه ، فحسبنه من الطُول الذى هو ضد القصر فظنت سودة أنها المرادة ، فلما ماتت زينب قبلها علمن حينئذ أنه إنما أراد[1] ، الطَّوْل الذى هو الفضل والكرم ، فكانت زينب أكثرهن صدقة .

والعرب تقول : فلان أطول يدا من فلان إذا كان أكرم منه[2]

قال الشاعر :

ـ أن بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم قلن للنبى عليه السلام: أينا أسرع بك لحوقا ؟ قال : أطولكن يداً ، فأخذوا قصبة يذرعونها ، فكانت سودة أطولهن يداً فعلمنا بعد إنما كانت طول يدها الصدقة وكانت أسرعنا لحوقا به وكانت تحب الصدقة .

قال ابن حجر : الروايات كلها متضافرة على أن القصة لزينب وتفسيره بسودة غلط من بعض الرواة والدليل على ذلك أن سودة كان لها الطول الحقيقى ، ومحط الحديث الطول المجازى وهو كثرة الصدقة . وذلك لزينب بلا شك لأنها كانت قصيرة ، وكانت وفاتها سنة عشرين . ويقال إن فى الرواية سقطا وأصل الكلام : فأخذن قصبة ، فجعلن يذرعنها ، فكانت سودة أطولهن يداً وكانت أسرعهن لحوقاً به زينب فلما ماتت زينب علمنا أنه لم يرد باليد العضو وبالطول طولها بل أراد العطاء وكثرة الصدقة .

(١) فى ط : علمن حينئذ أنه من الطول .

(٢) فى ط زيادة (وأكثر بذلا) .

ولم يَكُ أكثرَ الفتيــانِ مــالاً
ولكن كان أطولَهم ذِراعــا[1]

ويروى : أرحبهم . ومن هذا النوع قوله تعالى : (من أَجل ذلكَ كتبنَا عَلَىَ بنى إسرائيل)[2] .

قال قوم معناه من سبب ذلك كما يقال : فعلت[3] ذلك من أجلك

وقال قوم معناه : من جناية ذلك وجريرته ، يقال : أَجَلَ عليهم شرا يأْجُلُه أَجلا إذا جناه ، واحتجوا بقول خَوَّات بن جُبَير الأَنصارى :

وأهل خِباءٍ صالح ذاتُ بينِهم
قد احتربوا فى عاجل أنا آجله[4]

---

(١) الشاعر هو أبو زياد الأعرابى أحد الأعراب الذين كانوا يفدون من البادية ، واسمه يزيد بن عبد الله بن الحر قدم بغداد أيام المهدى وطال مقامه بالكوفة وهو من بنى عامر بن كلاب له من الكتب : النوادر ، والإبل ، وخلق الإنسان .
شرح ديوان الحماسة للمرزوقى حـ ٤ ص ١٥٩٢ الحيوان للجاحظ ٥ - ١٣٥ .

(٢) المــائدة : ٣٢ .

(٣) انظر تفسير الكشاف ١ - ٦٢٦ ، البحر المحيط ٣ - ٤٦٨ .

(٤) آجله : جانيه . وخوات بن جبير هو صاحب ذات النحيين ، وكان من فتاك العرب فى الجاهلية ثم أسلم ،وحسن إسلامه ، وشهد بدراً ، =

وهذا النوع كثير جداً

وأما الاشتراك العارض[1] من قبل اختلاف أحوال الكلمة دون موضوع لفظها فمثل قوله تعالى : (ولا يضارَّ كاتبٌ ولا شهيد)[2]

قال قوم مضارَّة الكاتب أن يكتب ما لم يُمْلَ عليه ومُضَارَّة الشهيد أن يشهدَ بخلاف الشهادة

وقال آخرون[3] مُضارَّتُهُمَا أن يُمْنَعَا من أشغالهما ، ويكلفا الكتابة والشهادة فى وقت يَشُقُّ فيه[4] ذلك عليهما . وإنما أوجب هذا الخلاف أنَّ قوله : ولا يُضَارّ يَحتمل أن يكون تقديره ولا يضارَرَ بفتح الراء فيلزم على هذا أن يكون الكاتب والشهيد مفعولا بهما لم يُسَمَّ

ـ وهذا البيت نسب فى الأصول وفى اللسان لحوات. ولكن ابن برى يقول: إنه وجده فى شعر زهير فى القصيدة التى مطلعها : صحا القلب من سلمى وأقصر باطله . وبالرجوع إلى ديوان زهير وجد فيه هذا البيت . وإن كان الأعلم يرى أنه لحرات وألحق بقصيدة زهير ومعنى البيت أنه استطاع أن يؤرث الحرب بين قوم متحابين .

انظر اللسان مادة أجل ، وديوان زهير ط. بيروت وشرح الأعلم للديوان .

(١) فى ب : الواقع .

(٢) البقرة : آية ٢٨٢ .

(٣) فى ب قوم .

(٤) فى ط : يشق ذلك فيه .

فاعلهما ، وهكذا كان يقرأ ابن مسعود بإظهار التضعيف وفتح الراء .

ويحتمل أن يكون تقديره ولا يضارِرْ بكسر الراء فيلزم على هذا أن يكون الكاتب والشهيد فاعلين . وهكذا كان يقرأ ابن عباس[1] رضى الله عنه بإظهار التضعيف وكسر الراء[2] .

ومثل هذا قوله تعالى : (لا تضارَّ والدةٌ بولدهاَ ولا مولودٌ له بولده)[3] .

---

(١) فى ط كان يقرأ ابن عمر . وهى مخالفة لما ورد فلعلها محرفة عن عمر كما يتبين مما يأتى .

(٢) قال أبو حيان فى تفسير « ولا يضار كاتب ولا شهيد » هذا نهى ولذلك فتحت الراء لأنه مجزوم ، والمشدد إذا كان مجزوما كهذا كانت حركته الفتحه لخفتها ،لأنه من حيث أدغم لزم تحريكه.فلوفك ظهر الجزم.واحتمل هذا الفعل أن يكون مبنياً للفاعل ، فيكون الكاتب والشهيد قد نهيا أن يضارا أحدا ، بأن يزيد الكاتب فى الكتابة أو يحرف ، وبأن يكتم الشاهد الشهادة ، أو يغيرها ، أو يمتنع من أدائها . واحتمل أن يكون مبنيا للمفعول فنهى أن يضارهما أحد ، بأن يعنتا ، ويشق عليهما فى ترك أشغالها ويطلب منهما ما لا يليق فى الكتابة والشهادة ، ويقوى هذا الاحتمال قراءة عمر ولا يضارر بالفك وفتح الراء رواها الضحاك عن ابن مسعود وابن كثير عن مجاهد . وهى من القراءات الشاذة، وحكى أبو عمرو الدانى عن عمر أيضا وابن عباس الفك مع كسر الراء ، وقال ابن جنى : وكلاهماقد قرئ به ،، أعنى الفتح فى الراء الأولى والكسر . والإدغام لغة تميم ، والفك لغة الحجاز .
المحتسب ١ ـ ١٤٨ . مختصر الشواذ لابن خالويه ص ١٥ .

(٣) البقرة : آية ٢٣٣ .

وأما الاشتراك العارض من قبل تركيب الكلام وبناء بعض الألفاظ على بعض ، فإن منه ما يدل على معان مختلفة متضادة ، ومنه ما يدل على معان مختلفة غير متضادة .

فمن النوع الأول قوله تعالى : (وما يتلىَ عليكُم فى الكتاب فى يَتَامىَ النساء اللاتى لا تؤتونَهُنّ ما كُتِبَ لَهَن ، وتَرغَبُون أن تنكحوهن)[1] .

قال قوم : معناه : وترغبون فى نكاحهن لمالهن[2] .

وقال آخرون : إنما أراد وترغبون عن نكاحهن لدمامتهن وقلة مالهن .

وإنما أوجب هذا الخلاف أن العرب تقول رغبتُ عن الشيء إذا زهِدتَ فيه ، ورغبتُ فى الشيء إذا حَرصتَ عليه . فلما ركب الكلامُ تركبا سقط منه حرف الجر احتمل التأويلين المتضادين فصار كقول القائل :

---

(١) النساء : ١٢٧ .

(٢) قال أبو عبيدة : هذا اللفظ يحتمل الرغبة والنفرة ، فالمعنى فى الرغبة : فى أن تنحكوهن لمالهن وجمالهن ، والنفرة : وترغبون عن أن تنكحوهن لقبحهن فتمسكوهن رغبة فى أموالهن
(البحر المحيط ٣ - ٣٦٢) .

ويرغبُ أن يبنى المعـــالى خـالد

ويرغبُ أن يرضى صنيعَ الألائم[1]

وهذا البيت يحتمل أن يكون مدحا ، وأن يكون ذمًّا . فإن جعلت الرغبة الأولى (مقدرة بفى ، والثانية[2] مقدرة بعن كان مدحا) .

وإن جعلت الرغبة الأولى مقدرة بعن والثانية مقدرة بفى كان ذمًّا . ومن هذا النوع قول على رضى الله عنه :

أيُّها الناسُ !! « تزعمون أنى قتلت عثمان ، ألاَ وإن الله قتله ، وأنا معه » .

أراد علىٌّ – رحمه الله – أنَّ الله قتله ، وسيقتلنى معه ، فعطف أنـا على الهـاء[3]

---

(١) هذا البيت أنشده ابن هشام فى المغنى ٢ - ٥٢٦ نقلا عن ابن السيد وقال فإن قدر « فى » أولا و « عن » ثانياً فمدح . وإن عكس فذم ، ولا يجوز أن يقدر فيهما معاً « فى » أو « عن » للتناقض . ولم نقف على قائل هذا البيت .

(٢) ما بين القوسين ساقط من ب .

(٣) جعل ابن السيد أنا معطوفة على الهاء من قتله . ولا ندرى ما وجه هذا العطف ؟ المعروف أن الضمير المرفوع المنفصل لا يعطف على الضمير المنصوب المتصل . نعم يجوز أن يكون من عطف الجمل أى وأنا سأقتل معه . أما عطف مفردات فلا وجه له

من قتله ، وجعل الهاء فى معه « عائدة على عثمان رضى الله عنه .

وتأولته[1] الخوارج على أنه عطف أنا على الضمير[2] فى قتله ، أو على موضع المنصوب بأن كما تقول : إن زيداً قائم وعمرو . فرَفع عَمراً عطفًا على موضع زيد وما عمل فيه وجعلوا الضمير فى قوله معه عائدا على الله تعالى ، فأوجبوا عليه من هذا اللفظ أنه شارك فى قتل عثمان رضى الله عنه ، ولذلك قال كعب بن جُعَيْل[3] :

إذَا سِيـْل عنه حَـدَا[4] شُبْهةً
وعمَّى الجواب عن[5] السائلينـا

(١) فى ط وتأوله الخوارج .

(٢) أى على الضمير الفاعل المستتر .

(٣) كعب بن جعيل شاعر من تغلب ، أدرك الجاهلية والإسلام ، قال المرزبانى : هو شاعر معاوية وأهل الشام يمدحهم ويرد عنهم ، وحضر مع معاوية موقعة صفين . ولقد ضمن أبياته حديثاً جرى بين حسان بن ثابت وعلى رضى الله عنهما . قال حسان لعلى : إنك تقول ما قتلت عثمان ، ولكن خذلته ، ولم آمر به ، ولـكن لم أنه عنه ، فالخاذل شريك القاتل ، والساكت شريك القاتل. وفى البيت يروى بدل حداشبهة : زوى وجهه. توفى كعب سنة ٥٥ هـ : (انظر العقد الفريد ٤ ـ ٢٩٦ بيروت . خزانة الأدب ١ ـ ٤٥٨ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد حـ ١ ص ٣٦٤ ، الشعر والشعراء ص ٦٣١) .

(٤) فى ط هذا شبهة .

(٥) فى ب « على » .

فليس براض ولا ســـــاخط

ولا فى النُّهاة ولا الآمرينـــــا

ولا هو سَـــاءَهُ ولا سَــــرَّهُ

ولا بد من بَعْضِ ذا أَن يكونا[1]

وإنما قال هذا لأَن عليا رضى الله عنه كان يقول : إذا ذكر له قتل عثمان رضى الله عنه ـ : والله ما أمرت ولا نهيت ، ولا رضيت ، ولا سخطت ، ولا ساءنى ولا سرنى .

ونظير هذا الضمير[2] فى احتماله التأْويلين المتضادين معاً قول خالد بن عبد الله[3] القَسْرى على المنبر : إن أمير المؤمنين كتب إلى أن ألعن عليا ، فالعنوه لعنه الله . فأوهم أن الضمير راجع إلى على ، وإنما هو عائد على

---

(١) ساه أصلها : ساءه فخففت بحذف الهمزة للمحافظة على الوزن الشعرى .

(٢) فى ب التأويل .

(٣) هو خالد بن عبد الله بن يزيد البجلى القسرى كان واليا على العراق من قبل هشام بن عبد الملك قتل أيام الوليد سنه ١٢٦ هـ وكان من خطباء العرب معروفاً بالفصاحة

انظر تاريخ الطبرى ٨ ـ ٢٤٩ ، وفيات الأعيان ٢ ـ ٢٢٦ ، الأعلام جـ ٢ ص ٣٣٨ .

الآمر له بلعنه ، ولذلك أُنكِر على خالد ما جاء به من اللفظ المشترك ، فكان بعد ذلك يصرح بلعنه بألفاظ لا اشتراك فيها . وهذا النوع من الضمائر كثير فى الكلام. فمنه قوله تعالى :

(إليهِ يَصْعد الكِلمُ الطيِّبُ والعملُ الصالح يرفعه)(١) .

يجوز أن يكون الضمير الفاعل الذى فى يرفعه عائداً على الكلم(٢) ، والضمير المفعول عائدا على العمل فيكون

---

(١) سورة فاطر : آية ١٠ .

(٢) قال أبو حيان : الكلم الطيب هو التوحيد والتحميد وذكر الله ، وقال ابن عباس : شهادة ألا إله إلا الله . وذكر أبو حيان وجها ثالثاً عن قتادة ، فى مرجع الضمير قال : إن فاعل يرفعه ضمير يعود على الله والهاء تعود للعمل الصالح أى والعمل الصالح يرفعه الله إليه ويقبله . قال ابن عطية : هذا أرجح الأقوال . ثم قال : فلو أنك وضعت مكان يرفع رافعا وكان الرافع العمل الصالح كان الضمير المستتر فى رافعه راجعاً للعمل ، وكان رافعه وصفا جارياً على العمل الصالح ، ويكون المرفوع هو الكلم . وإذا كان الرافع هو الكلم كان الضمير الفاعل راجعاً إلى الكلم ويكون رافعه خبراً عن العمل ، وهو ليس له ، لأن العمل مرفوع لا رافع ، وللفرق أوجبوا إبراز الضمير ليكون ذلك آية على أن الوصف جار على غير من هو له ، فيقال : والعمل الصالح رافعه هو ، ولا يكون ذلك فى الفعل . قال ابن الشجرى فى أماليه ١ - ٣١٤ اسم الفاعل إذا جرى على غير من هو له خبراً أو صفة لزملك إبراز ضمير المتكلم والمخاطب والغائب مخافة اللبس ، وليس كذلك الفعل لأن ما فى أوائل الأفعال المضارعة من الزوائد الدالة على المتكلمين والمخاطبين والغائبين وما يتصل بآخر الأفعال الماضية من الضمائر يمنع اللبس .

معناه : إن الكلم الطيب ، وهو التوحيد يرفع العمل الصالح ، لأنه لا يصح عمل إلا مع إيمان .

ويجوز أن يكون الضمير الفاعل عائداً على العمل ، والمفعول عائداً على الكلم ، فيكون معناه أن العمل الصالح هو الذى يرفع الكلم الطيب . وكلاهما صحيح ، لأن الإيمان قول وعقد وعمل ، لا يصح بعضها إلا ببعض .

ولو جعلت فى هذه الآية اسم الفاعل مكان الفعل لاختلف اللفظان ، لأن اسم الفاعل يستتر فيه ضمير ما هو له ، ويظهر ضمير ما ليس له ، فكان يلزم إذا جعلت الرفع للكلم أن تقول : والعمل الصالح رافعه هو . وإذا جعلت الرفع للعمل قلت : والعمل الصالح رافعه ، فيستتر الضمير الفاعل ، ولا يظهر ، كما تقول : هند زيد ضاربته هى ، إذا جعلت الضرب لهند ؛ لأنه جرى خبرا على غير من هو له . فإذا جعلت الضرب لزيد قلت : هند زيد ضاربها ، ولم يحتج إلى اظهار الضمير لجريانه خبرا على من هو له .

ومن هذا النوع من الضمائر قول زهير :

نظرت إليه نظـرة فرأيتـــه

على كل حال مرة هو حامله[1]

يجوز أن يكون الحامل هو الغلام ، والمحمول هو الفرس ، ويجوز أن يكون الأمر بعكس ذلك .

ومن هذا النوع من الضمائر قوله صلى الله عليه وسلم : [إن الله خلق آدم على صورته][2]

ذهب قوم إلى أن الهاء عائدة على آدم ، وقوم إلى أنها عائدة على الله تعالى .

وسنتكلم على هذا الحديث فى موضعه إن شاء الله تعالى ..

---

(١) هذا البيت من القصيدة التى يمدح بها حصن بن حذيفة يصف الفرس وقد ركبه الوليد للصيد . والمعنى نظرت إلى الفرس يحمل الغلام مرة على الطمع . ومرة على اليأس . ومرة على الهلاك لنشاطه وحدته ففاعل حامله ضمير يعود إلى الفرس ويجوز أن يعود إلى الغلام أى نظرت إلى الفرس فرأيته والغلام يحمله من السير على كل حال مما أحب أو كره .

(٢) ورد فى مسلم باب الجنة والنار ٨ ـ ١٤٩ وفى البخارى فى باب الاستئذان وفى مسند أحمد ٢ ـ ٢٤٤ بلفظ إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته ، وفى رواية : ولا تقل قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فإنه تعالى خلق آدم على صورته وفى ٢ ـ ٣١٥ رواه أحمد برواية مسلم .

ومن الضمائر المشتركة قول حسان :

ظننتُم بأَن يخفى الذى قد صنعتُمُ
وفينـــا نَبيٌّ عنده الوحيُ واضعُه[1]

ذهب سيبويه إلى أن الهاء فى واضعه ترجع إلى الوحى ، وذهب غيره إلى أنها راجعة إلى الذى ، وكلا القولين صحيح المعنى .

فيكون معنى وضع النبى صلى الله عليه وسلم للوحى على قول سيبويه ، أنه وضعه للناس بأَمر الله عز وجل ، فَسَنَّ السُّنَن ، وفرض الفروض ، ورتب الأَشياء مراتبها . ويكون معناه على قول غيره : إن الوحى يضع عنده ما يصنعون . أى يُبَيِّن له ما ترومونه ، وتريدونه ،

(١) هذا البيت من قصيدة لحسان بن ثابت قالها حين هرب أبيرق سارق الدرعين الذى نزل فى شأنه قوله تعالى : (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما) الآيات . ونزل أبيرق بمكة على سلافة بنت سعد الأنصارية والدة عثمان بن طلحة . وسيبويه يرى أن الضمير فى واضعه يعود على الوحى . أى أن النبى صلى الله عليه وسلم يضع بيننا ما يوحى إليه فينبئنا بصنعكم وتدبيركم .
سيبويه ١ - ٢٤٢ . الديوان٣٢٨ .
وحسان هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصارى شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، وأسلم وصار شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ينافح عن الدعوة الإسلامية ، ومات فى خلافة معاوية عن مائة وعشرين عاماً .

ويظهر له ما تخفونه من مكركم[1]. فتقدير الكلام على هذا : وفينا نبي الوحى واضع ما صنعتم عنده . وهذا القول عندى أظهر من قول سيبويه .

ويجوز أن يكون من الوضع الذى هو الإسقاط والإطّراح فيكون معناه : إن الوحى يسقط الذى تصنعونه ويبطله .

ومن هذا النوع المشترك التركيب قوله تعالى : (حُرِّمَت عليكم أمهاتكم . . . الآية)[2] فإن هذه الآية فى بعضها خلاف ، وفى بعضها وفاق :

فمن قوله تعالى : حرمت عليكم أمهاتكم إلى قوله : وأخواتكم من الرضاعة تحريمٌ مبهم متفق عليه[3]. وقوله تعالى : وربائِبُكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن . تحريم غيرمبهم[4]. ورفع قوله

(١) فى ب زيادة « وتزمعون » .

(٢) سورة النساء : ٢٣ والآية هى (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيما) .

(٣) يقصد من المبهم المطلق غير المقيد بشرط .

(٤) لأنه مقيد بشرط الدخول .

تعالى[1]: (وأمهاتُ نسائكم). متوسطا بين التحريمين. فجعل قوم أُمهات النساء من التحريم المبهم[2]، وجعله آخرون من التحريم غير المبهم، وقالوا إذا تزوج المرأة ولم يدخل بها لم تحرم عليه أمها[3].

وإنما أوجب هذا الخلاف أنه تبارك وتعالى أعاد فى هذه الآية ذكر النساء مرتين، ثم قال على إثر ذلك: اللاتى دخلتم بهن. فمن جعل أُمهات النساء من التحريم المبهم ذهب إلى أن اللاتى صفة للنساء المتصلات بالربائب خاصة دون النساء المتصلات بالأُمهات. ومن جعلهن من التحريم غير المبهم ذهب إلى أن اللاتى دخلتم بهن. صفة للنساء المذكورات فى الموضعين معاً. فصار خلاف الفقهاء فى هذه الآية مبنيا على خلاف النحويين فى جمع الصفة وتفريق الموصوف[4].

---

(١) فى ط ووقع:

(٢) هذا رأى الجمهور فتى عقد الرجل على المرأة حرمت عليه أمها مطلقا دخل بها أو لم يدخل.

(٣) روى عن على ومجاهد وغيرهما أنه إذا طلقها قبل الدخول فله أن يتزوج أمها وأنها فى ذلك بمنزلة الربيبة. البحر المحيط ٢ ـ ٢١١ :

(٤) جمهور النحاة يرون أن العامل فى النعت هو العامل فى المنعوت، وبناء على هذا إذا كان النعت متحداً مثنى أو مجموعاً، وكان المنعوت مفرقاً، =

وذلك أن هذا الباب منه ما قد أجمع النحويون على جوازه ، ومنه ما قد جمعوا على منعه ، ومنه ما اختلفوا فيه .

فالذى اتفقوا على جوازه أن يتفق الموصوفان فى

= فإنه ينظر ، فإذا اتحد العامل معنى وعملا مثل قام محمد وعلى العاقلان ، وقام محمد ، ونهض على العالمان ، ورأيت محمدا وعليا العاقلين ورأيت محمدا وأبصرت عليا العالمين و مررت بمنزلكم ومنزلنا الواسعين جاز فى النعت الإتباع لأن العامل وإن تعدد بمنزلة العامل الواحد نظراً لاتحاده معنى وعملا ، فلا يلزم عمل عاملين فى معمول واحد .

أما إذا اختلف العامل معنى وعملا مثل جاء محمد ورأيت عليا العالمان أو معنى فقط مثل جاء محمد وذهب على العاقلان أوعملا فقط مثل هذا موجع على ومؤلم بكراً العاقلان . وجب القطع ولا يجوز اتباع النعت للمنعوت وإلا لزم أن يعمل عاملان فأكثر فى معمول واحد هو النعت . هذا رأى الجمهور .

قال فى « الهمع » : جوز قوم منهم الأخفش الإتباع إذا اتحد العمل لاجنس العامل وتقارب المعنى ، وجوز الكسائى والفراء . الإتباع إذا تقارب معنى العاملين وإن اختلفا فى العمل نحو رأيت زيداً ومررت ببكر الظريفين ويكون النعت تابعاً للأول أو الثانى . قال أبو حيان : ومقتضى مذهب سيبويه أنه لا يجوز الإتباع لما انجر من جهتين كالحرف والإضافة نحو مررت بزيد وهذا غلام بكر الفاضلين ، والحرفين المختلفين لفظاً ومعنى نحو مررت بزيد ودخلت إلى عمرو الظريفين ، أو معنى فقط نحو مررت بزيد واستعنت بعمرو الفاضلين ولإضافتين مختلفين نحو هذه دار زيد ، وهذا اخو عمرو الفاضلين . انظر الهمع ٢ ـ ١١٨ وحاشية الصبان على الأشمونى ٣ ـ ٦٦ .

الإعراب والعامل معاً كقولك مررت بزيد وأخيك العاقلين .

والذى اتفقوا على منعه أن يختلف الإعرابان والعاملان معا كقولك : مررت بزيد ، وهذا أبوك . لا يجيزون : العاقلان ولا العاقلين على الصفة . لكن على القطع ؛ والنصب باضمار أعنى ،والرفع بإضمار مبتدا كأنه قال: هما العاقلان .

والذى اختلفوا فى جوازه أن يتفق الإعرابان ويختلف العاملان كقولك مررت بغلام زيد ونزلت على عمرو العاقلين . فقوم يجيزون أن يجعلوا العاقلين صفه لزيد وعمرو . وقوم يمنعون ذلك .

ومذهب من منع من ذلك أقيس لأن زيدا انجر بإضافة الغلام إليه ، وعمرو انجر بعلى ، فإذا جعلت العاقلين صفة لهما أعملت عاملين مختلفين فى اسم واحد ، وذلك لا يجوز ، وهو جائز على قياس قول أبى الحسن الأخفش . لأن العامل فى الموصوف لا يعمل عنده فى الصفة . وإنما تنخفض الصفة عنده أو تنتصب أو ترتفع بالإتباع .

فلما كانت النساء الأُوَل من قوله تعالى وأمهات نسائكم العامل فيهن الإضافة ، والنساء الأُخَر العامل فيهن : من . اختلف العاملان فوجب ألا تكون اللاتى :خلتم بهن[1] صفة لهما معاً على ما قلناه .

ولكن من أجازه من الفقهاء يمكنه أن يحتج بشيئين :

أحدهما : أن يكون على مذهب من أجاز ذلك من النحويين[2]

والآخر : أن قوله تعالى : اللاتى . اسم مبنى لا يظهر فيه الإعراب فيمكن أن يكون منصوباً بإضمار أعنى[3] أو مرفوعاً بإضمار مبتدا . ولو ظهر الإعراب فيه أيضاً لم يمتنع أن يحمل على الإضمار لا على الصفة ، فيكون نحو ما أنشده سيبويه من قول الشاعر[4] :

---

(١) قال أبو حيان : ولا يجوز أن يكون اللاتى وصفاً لنسائكم من قوله : وأمهات نسائكم ، ونسائكم المجرور بمن ، لأن العامل فى المنعوتين قد اختلف هذا مجرور بمن ، وذاك مجرور بالإضافة . البحر المحيط ٣ ـ ٢١٢ .

(٢) وهو الأخفش والفراء والكسائى .

(٣) أى على القطع .

(٤) هذان البيتان من شواهد سيبويه التى لم يعرف قائلها . والجراف وراسم عاملان من عمال الصدقات ، يذكر الشاعر جورهما واعتداءهما فيما يأخذان من صدقات الأموال . أعتبتمونا : أرضيتمونا . عداء : ظلم .

أَمِن عَمَلِ الجرَّاف أَمسِ وظُلمِهِ
وعُـدوانه أَعْتَبْتُمونـا بِراسِمِ

أَمِيرَى عَـداءٍ إن حَبَسْنَا عليهما
بهائمَ مال أَوْ دَيَا بالبهـائـم

ألا ترى أن قوله أَمِيرَى عَدَاءٍ لايجوز أن يكون بدلا من الجرَّاف وراسم لاختلاف العاملين(١)، ولكنه على إضمار أعنى .

وكذلك قول الراجز :

إنَّ بهـا أَكْتَـلَ أَو رزامـا
خُوَيْرِبَيْنِ يَنْقُفَـان الهـامَـا(٢)

فخويربين لا يجوز أن يكون مردوداً على أكتل

= وبهائم المال: الإبل . أى إن حبسنا عليهما الإبل ليأخذا صدقاتها جارا فذهبا بالإبل كلها . والشاهد نصب أميرى عداء على الذم والقطع ولا يجوز نصبه على الحال ولا جره على البدل من الاسمين لاختلاف العاملين .
شواهدسيبويه ١ ـ ١٨٨ خزانة الأدب ١ ـ ٣١٣ اللسان (جرف) .

(١) لأن العامل فى جراف الإضافة وفى راسم الباء .

(٢) الرجز لرجل من بنى أسدٍ وأكتل ورزام حيان أو رجلان ، وخويربين تثنية خويرب . والخارب هو اللص . وقيل سارق الإبل خاصة ، وينقفان الهام : يستخرجان دماغها ، وهذا مثل ضربه لعلمهما بالسرق ، واستخراجهما لأخفى الأشياء وأبعدها مراما . والشاهد نصب خويربين على الذم ، ولا يجوز أن يكون حالا من أكتل ورزام لأن أو لأحد الشيئين. أمالى الشجرى ٢ ـ ٣١٨ . الكامل للمبرد ص ٤٥٤ شواهد سيبويه ١ـ ٢٧٨

ورزَام لأَنه أَوجبَ أَحدهما للدخول أَو التى للشك بينهما .

أَلا ترى أَنه لا يجوز[1] [رأَيت زيدا أَو عمراً منطلقين] [2] .

فهذا ونحوه من التركيب المشترك الذى يحتمل المعنى وضده ، ونظيره من الشعر قوله :

قُبَيِّـــــلةٌ لا يَغْـــدِرُون بذمـــة
ولا يظلمون الناسَ حبةَ خَرْدَل[3]

أَلا تراه قد أَخرج هذا الكلام مخرج الهجو ، ولولا

---

(١) لأن أو لأحد الشيئين أو الأشياء فتقول رأيت زيداً أو عمراً منطلقا .

(٢) فى ب منطلق وهو تحريف .

(٣) قائله النجاشى الشاعر واسمه قيس بن عمرو . والبيت من قصيدة يهجو بها تميم بن أبى بن مقبل فاستعدى عليه عمر بن الخطاب ، فلما سمع عمر البيت قال ليتنى من هؤلاء ، فأنشده ما بعده إلى أن قال :

إذا الله عادى أهل لؤم وذلة ... فعادى بنى العجلان رهط بن مقبل
تعاف الكلاب الضاريات لحومهم ... وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فحبسه عمر وضربه .

أنظر زهر الآداب ١ ـ ١٩ خزانة الأدب ١ ـ ١٦٠ ط الحلبى العمدة ١ ـ ١٩ مجالس ثعلب ٢ـ٤٣١

أن فى غير هذا البيت دليلا على ذلك لكان من الثناء والمدح . وكذلك قول الآخر :

يَجْزُون من ظُلْمِ أهل العلم مغفرة
ومن إساءة أهل السوء إحسانـا[1]

وأما التركيب الدال على معان مختلفة غير متضادة فكقوله تعالى :

(وما قتلوه يقينا)[2] .

فإن قوماً يرون الضمير مِنْ قتلوه عائداً إلى المسيح . وقوماً يرونه عائداً إلى العِلْم المذكور فى قوله [مالهم به من عِلم إلا اتباع الظن][3] . فيجعلونه من قول العرب : قتلت الشىء علما[4]

---

(١) قائل هذا الشعر قريط بن أنيف من بنى العنبر ، وهو من قصيدة يمدح فيها بنى مازن ويصفهم بالنجدة والشجاعة ؛ ويعيب على قومه بنى العنبر قعودهم عن نصرته ويصفهم بأنهم يغفرون ويقابلون الإساءة بالإحسان . وفى التنبيه لابن جنى : وقد تروى القصيدة لأبى الغول الطهوى .
شرح الحماسة للمرزوقى ١ - ٣١ .

(٢) سورة النساء : ١٥٧ وتمام الآية : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم . وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه . ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا) .

(٣) انظر الآية السابقة .

(٤) الجمهور يرون أن الضمير فى قتلوه عائد إلى المسيح فتكون الضمائر كلها لشىء واحد فلا تختلف . وقال الفراء وابن قتيبة الضمير عائد على العلم أى ما قتلوا العلم يقينا ، يقال : قتلت العلم والرأى يقينا وقتلته علما لأن

ومن هذا النوع قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم] [1].

فإن الناس اختلفوا فى هذا التشبيه من أين وقع ؟ فذهب قوم إلى أن التشبيه إنما وقع فى عدد الأيام ، واحتجوا بحديث رَوَوْه : إن النَّصارى كان فرض عليهم فى الإنجيل صوم ثلاثين يوماً كالتى فرضت علينا ، وإن ملوكهم زادوا فيها تطوعا حتّى صيروها خمسين [2] ، وذهب قوم آخرون إلى أن التشبيه إنما وقع فى الفرض لا فى عدد الأيام . وهذا القول هو الصحيح وإن كان القولان جائزين فى كلام العرب ، ألا ترى أنك إذا قلت : أعطيت زيدا كما أعطيت عمراً احتمل أن تريد تساوى العطيتين واحتمل أن تريد تساوى الاعطاءين ، وان كنت أعطيت أحدهما خلاف ما أعطيت الآخر وهذا يكثر إن تتبعناه ، وقد أوردنا منه جملة تنبه على الغرض الذى قصدناه ، وبالله التوفيق .

القتل للشيء يكون عن قهر واستعلاء فكأنه قيل؛ولم يكن علمهم بقتل المسيح علما أحيط به إنما كان ظنا ، وقال الزمخشرى : هو من قولهم قتلت الشيء علما ونحرته علما ، إذا تبالغ فيه علمك . وفيه تهكم لأنه إذا نفى عنهم العلم نفياً كلياً بحرف الاستغراق ثم قيل : وما علموه علم يقين وإحاطة لم يكن الا تهكما .

انظر الكشاف ١ ـ ٥٨٨ ، والبحر المحيط ٣ ـ ٣٩١ .

(١) البقرة : ١٨٣ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ٢ ـ ٢٧٤ . والبحر المحيط ٢ ـ ٢٩ والكشاف ١ ـ ٢٢٥ .

(٣) فى ب جائزان وهو خطأ

الباب الثاني

في الخلاف العارض من جهة الحقيقة والمجاز

قد ذهب قوم إلى إبطال المجاز ، وذهب آخرون إلى إثباته .

وإنما كلامنا فيه على مذهب من أثبته ، لأنه الصحيح الذى لا يجوز غيره ، لقوله تعالى : [وما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُول إلاَّ بِلَسانِ قَوْمِه][1]. وقوله : [بلسان عربى مبين][2]. ولا وجه لإطالة القول فى الرد على من أنكره ، لأنا لم نقصد فى كتابنا هذا مناقضة أحد من أهل المقالات ، وإنما قصدنا الكلام فى أصول الخلاف .

فأقول ـ والله الموفق[3]ـ إن المجاز ثلاثة أنواع :

نوع يعرض [فى][4] موضوع اللفظة المفردة .

ونوع يعرض فى أحوالها المختلفة عليها من إعراب وغيره .

ونوع يعرض فى التركيب وبناء بعض الألفاظ على بعض .

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤ وتمام الآية : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم) .

(٢) الشعراء : ١٩٥ .

(٣) فى ط وبالله التوفيق .

(٤) فى ا من

مِثال النوع الأَول : الميزان ، فإنه[1] يكون المقدار الذى تعارفه الناس فى معاملاتهم ، ويكون العدلَ : تقول العربُ : وازنتُ بين الشيئين إذا عادلْتَ[2] بينهما ورجل وَازِن : إذا كانت[3] له حصافة ومعرفة قال كُثَيِّر :

رأَتْنِى كأَشلاءِ اللِّجامِ وبَعْلُهــا
من القوم أَبْزَى بـادنٌ متبـاطنُ

فإن أَكُ معروقَ العظام فـإننى
إذا ما وَزَنْتُ القومَ بالقوم وازنُ[4]

(١) فى ط : فإنه قد يكون .

(٢) فى ط : عدلن .

(٣) فى ب : كان .

(٤) أشلاء : هى سيور اللجام أو حديده ويروى كأنضاء جمع نضو وهى حديدة اللجام . ويروى بدل (من القوم) ، (من الملء) وهو الامتلاء : أبزى : به انحناء فى الظهر عند العجز . بادن : سمين . متباطن : مندفع البطن ، معروق العظام : انحسر اللحم عن عظامه فأصبح قليل اللحم . وازن : راجح ؛ ورواية الديوان : إذا وزن القوم بالأقوام وازن .

والشاعر هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عمرو بن خزاعة ثم من الأزد فى الطبقة الأولى من فحول شعراء الإسلام ، ولكثرة نسيبه بعزة نسب إليها مات سنة ١٠٥ هـ .

انظر الديوان طبع بيروت ص ٢٨٠ .

ويقال للعَروض[1] : ميزان الشعر ، وللنحو[2] ميزان الكلام .

ويروى أن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – عرض عليه عود غِناء ، وقيل له :ماهذا ؟ فقال هذا هو الميزان الرومى ، أراد أنه ميزان الغناء .

وقال بعض الشعراء يَرْثِى عمرَ بنَ عبد العزيز رحمه الله :

قد غَيَّبَ الدافِنُون اللَّحْدَ إذ دَفَنُوا
بدير سَمْعَانَ قِسْطاسَ الموازين[3]

فشبه عمر رضى الله عنه بالميزان[4] لعدله .

ومن ذلك : السِّلْسِلَة ، فإن العرب تستعملها حقيقة ، وتستعملها مجازا على ثلاثة أوجه :

(١) فى ط : العروض .

(٢) فى ط : والنحو .

(٣) هذا البيت أحد أبياته رثى بها الشاعر عمر بن عبد العزيز والأبيات وردت فى معجم البلدان لياقوت وروايته للبيت الثانى :قد غيبوا فى ضريح الترب منفرداً..البيت ، ودير سمعان بكسر السين وفتحها : وهو دير فى ضواحى دمشق فى موضع نزه وبساتين . وكان به قبر عمر – رضى الله عنه – والآن ضاعت معالمه .
انظر معجم البلدان مادة دير سمعان .

(٤) فى ط : لعدله بالميزان .

الأول : أن يريدوا[1] بها الإجبار على الأمر والإكراه ، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (عجبت لقوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل)[2].

والثاني : أن يريدوا بها المنع من الشيء والكف عنه كقول أبي خِرَاش :

فليس كعهد الدار يا أُمَّ مَالِك
ولكن أحاطت بالرقاب السَّلاسِلُ[3]

يريد بالسلاسل حدود الإسلام وموانعه[4] التي كفَّتْ الأيدي الغاشمةَ [عن][5] غشَمِها . ومنعتْ مِنْ سفك الدماء إلا بحقها . ومن هذا قول الله تعالى:

(١) في ط أن تريد .

(٢) رواية أحمد والبخاري وأبي داود عن أبي هريرة (عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل) ورواه الطبراني عن أبي أمامة ، وأبو نعيم عن أبي هريرة بلفظ (عجبت لأقوام يساقون إلى الجنة بالسلاسل وهم كارهون) .

(٣) البيت ورد ضمن أبيات قالها أبو خراش في قتل زهير بن العجوة أخي بني عمرو بن الحارث ويقصد أن الإسلام أحاط برقابنا فلا نستطيع أن نعمل شيئاً .

وأبو خراش هو خويلد بن مرة من هذيل أدرك الإسلام ، وله صحبة مات زمن عمر بن الخطاب بعد أن نهشته حية .

انظر شرح ديوان الهذليين ٣ ـ ١١٨٨ .

(٤) هكذا في ب و ط وفي ا مواقعه ولعله تحريف .

(٥) في ب (من) .

[إِنَّا جعلنا فى أَعناقِهم أَغلالاً فَهِى إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُقْمَحُونَ] [1]

والثالث : أَن يريدوا بها ما تتابع بعضه فى إِثر بعض واتصل كقولهم : تَسَلْسَل الحديثُ ، وتسَلْسَل الماءُ ؛ ويقال ماء سَلْسَلٌ وسَلْسَال وسَلاسِل . قال أَوسُ بن حَجَر :

وأَشْبَرَّ نِيهِ الهَـــالِـكِيُّ كأَنه
غَديرٌ جَرَت فى متنه الريح سَلْسَلُ [2]

وقالوا سلاسل البرق ، وسلاسل الرمل . قال ذو الرُّمة :

لِأُدْمانةٍ من وَحْش بَيْنِ سُوَيْقَة
وبَيْن الجبال العُفْر ذات السَّلاسِلِ [3]

---

(١) قال الإمام الزمخشرى : مثل تصميمهم على الكفر ؛ وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رءوسهم له .

والآية رقم ٨ من سورة يس .
الكشاف جـ ٤ ص ٨ ، ٩

(٢) وروى وأشبرنيها . يصف الشاعر سيفا . أشبرنيه : أعطانيه ؛ الهالكى : الحداد أو الصيقل . سلسل : صفه لغدير يريد إذا ضربت الريح صفحة الغدير صار كالسلسلة ؛

والشاعر هو أوس بن حجر بن عتاب كان من شعراء الجاهلية ، وفحل شعراء مضر حتى ظهر النابغة وزهير فأخملاه وهو من أوصف الشعراء للسلاح كما كان كثير الوصف لمكارم الأخلاق . انظر الديوان ص ٩٦ .

(٣) الأدمانة : ولد الظبية ـ والجبال العفر : التى تضرب إلى الحمرة ورواية الديوان الحبال بدل الجبال يقصد الرمل انعقد بعضه إلى بعض.

ومن هذا النوع قولهم فلان على الجبل ، وعلى الدابة أى فوق كل واحد منهما

فهذه حقيقة ، ثم يقولون : علاه دَيْنٌ ، وفلان أمير على البصرة يريدون بذلك القهر والغلبة . وكذلك قولهم : فلان فى الدار وفى البيت . ثم يقولون : أنا فى حاجتك ، وإنما يريدون : أن حاجتك قد شغلتنى فلم تدع فىَّ فضلا لغيرها ، فشبَّهُوا ذلك بالمكان الذى يحيط بالمتمكن من جهاته الست ، فلا يدع منه فضلا لغيره .

وهذا كثير جداً فى اللغة يكثر إن تتبعناه ، فمنه قوله عز وجل : [فأتى الله بنيانهم من القواعد][1].

[ذهب[2]] قوم إلى أن البنيان هنا حقيقة ، وأنه

والسويقة : هضبة طويلة بالحمى حمى ضرية ببطن الريان وهى فى ديار تميم. انظر شرح الديوان لأبى نصر الباهلى تحقيق د . عبد القدوس أبو صالح ٢-١٣٤٠ وفى اللسان : ضرية اسم امرأة سمى الموضع بها بأرض نجد وقبل بئر .

(١) النحل : ٢٦ . وتمام الآية: (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) .

(٢) فى ط مذهب :

أراد الصرح الذى بناه هامانُ لفرعونَ ، وهو الذى ذكره [الله[1]] تعالى فى قوله : [وقال فِرعَوْنُ ياهامانُ ابنِ لى صرحًا لعلى أبلغ الأسبابَ][2].

وذهب آخرون إلى أنه كلام خرج مخرج التمثيل والتشبيه[3]. قالوا : ومعناه أن ما بنوه من مكرهم ، وراموا إثباته وتأصيله أبطله الله وصَرَفَهُ عليهم ، فكانوا بمنزلة من بنى بنيانًا يتحصّنُ به من المهالك ، فسقط عليه فقتله ، وشبهوه بقوله تعالى[4] :

[ولا يَحِيقُ المكرُ السّيِّئُ إلاّ بأهلِه][5].

---

(١) ساقط فى ب .

(٢) المؤمن : ٣٦ .

(٣) قال الزمخشرى فى الكشاف ٢ ـ ٦٠٢ (القواعد : أساطين البناء التى تعمده ، وقيل الأساس ، وهذا تمثيل يعنى أنهم سووا منصوبات ليمكروا بها الله ورسوله فجعل الله هلاكهم فى تلك المنصوبات ، كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فأتى البنيان من الأساطين ، بأن ضعضعت ، فسقط عليهم السقف وهلكوا ، ونحوه (من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً) .

(٤) بعض آية ٤٣ من سورة فاطر .

(٥) أى لا يحيط ولا ينزل المكر السىء إلا بأهله ، عن كعب أنه قال لابن عباس : قرأت فى التوراة من حفر مغواة (حفرة) وقع فيها . قال ابن عباس أنا وجدت ذلك فى كتاب الله ، وقرأ الآية .
راجع الكشاف ٣-٦١٩.

والقولان جميعاً جائزان على مذهب العرب ، ألا تراهم يقولون : بنى فلان شرفًا ، وبنى مجداً ، وليس هناك بنيانٌ فى الحقيقة قال عَبْدَةُ بن الطبيب :

فما كان قيسٌ[1] هُلْكُه هُلْكُ وَاحد
ولكنه بُنْيَانُ قوم تَهدَّما[2]

ويشبه هذا المعنى الذى ذهبوا إليه قولُ ابن أحمر :

رمانى بأمر كنتُ منه ووالدى
بَريًّا ومِنْ جَالِ الطوِّىِّ رَمَانى

---

(١) فى الأصل « قيسه » وما أثبت هو ما فى ب وهو الصواب .

(٢) هذا البيت من قصيدة يرثى بها قيس بن عاصم المنقرى ، وكان سيد أهل الوبر من تميم ، فيقول فى هذا البيت : كان لقومه وجيرته مأوى وحرزا ، فلما هلك تهدم بنيانهم ، وذهب عزهم . قال أبو عمرو بن العلاء : (هذا البيت أرثى بيت قيل) .

وعبدة بن الطبيب شاعر فحل من الشعراء المخضرمين فى الجاهلية والإسلام كان شجاعاً شهد الفتوح ، وقاتل مع المثنى بن حارثة فى فارس والنعمان بن مقرن فى المدائن توفى سنة ٢٥ هـ .

راجع شرح الحماسة للمرزوقى ٧٩٢ . شرح شواهد سيبويه ١-٧٧ : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٧٠٧ . الأغانى ١٨-١٦٣ .

(٣) ابن أحمر هو أبو الخطاب عمرو بن أحمر بن العمرد الباهلى من شعراء الجاهلية أدرك الإسلام وأسلم توفى فى خلافة عثمان بن عفان — رضى الله عنه — وهو يصف رجلا كان بينه وبين هذا الرجل مشاجرة على بئر ، فذكر أنه رماه بأمر يكرهه كما رمى أباه كذلك على براءتهما منه ، وذلك

ويروى من جُوّل الطَّوِىِّ والجَالُ والجُولُ ناحية البئر من أَسْفَلِها إلى أَعلاها ومعناه : رَمَانى بأَمر رَجَع عليه مكروهه ، فكأَنه رمانى من قَعْر البئرِ فرَجَعَتْ رَمِيَّتُه عليه فأَهلكته . هكذا رواه قوم ، وفسروه والمعروف :ومن أَجْلِ الطَّوِىِّ.وإنما كان يخاصمه فى بئر يَدَّعِيها كلٌّ واحد منهما . فقال : رمانِي بأَمر أنا ووالدى بريئان منه من أَجل ما بينى وبينه من الخصام فى الطَّوِىِّ ، وعلى هذا يدل الشعر لأَن قبله :

فلما رَأَى سُفْيَانُ أَنْ قد عزلتُه

عن المـاء مرمى الحائم الوَحَـدَانِ[1]

ومن هذا النبوع قوله عز وجل : [وإنْ كانَ مكرُهم لِتَزُولَ مِنهُ الجبالُ][2].

ـــــ من أجل البئر ويروى من أجل الطوى ، والجال والجول جدار البئر من أسفلها إلى أعلاها فى جميع جوانبها ، والمعنى أن الذى رمانى به رجع عليه ، وكان أحق به كمن رمى وهو فى قعر بئر فرجعت رميته عليه .

راجع شرح شواهد سيبويه ١ـ٣٨ . خزانة الأدب ٣ـ٣٨ .

(١) الحائم : الطائر يحوم ويطوف بحثاً عن ماء فلا يجد ـ الوحدان : المنفرد بنفسه .

(٢) إبراهيم : ٤٦ . وتمام الآية : (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم ، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) .

قوم يَروْن الجبَال ها هنا حقيقة ، وأنه أراد بذلك ما كان من صُعود نُمْروذ بن كَنْعَانَ فى التابوت نحو السماء ، فلما كرَّ منحدراً نحو الأَرض ظَنَّتْهُ الجبال أمراً من عند الله ، فكادت تزول من مَوَاضِعها .

وقوم آخرون يقولون : الجبال ها هنا تمثيل لأمر النبي – صلى الله عليه وسلم – أى إنهم مكروا به ليُزِيلوا أمره الذى قد رسخ رسوخ الجبال التى لا يستطاع على إزالتها من مواضعها[1] . والعرب تشبه الشىء الثابت بالجبل الشامخ ، والصخرة الراسية ، ألا ترى إلى قول زهير :

إلى بـاذخ يَعْلُو عَلَى مَن يُطَاوِلُه[2]

وقـال السموءَل بن عاديـاء :

---

(١) يقول الإمام الزمخشرى فى الكشاف ٢-٥٦٦ (الجبال مثل لآيات الله وشرائعه لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكنا ، وتكون إن نافيه ، وتنصره قراءة ابن مسعود . وما كان مكرهم لتزول) .

(٢) هذا عجز بيت صدره : حذيفة ينميه وبدر كلاهما .

وحذيفة أبو الممدوح ، وبدر جده ، وينميه : يرفعه ويعليه . الباذخ : العالى . والبيت من قصيدة يمدح بها حصن بن حذيفة مطلعها : صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله :

الديوان ٥٦ بيروت .

لنـــــا جبلٌ يحتلُّه مَنْ نُجيرُهُ
مَنِيعٌ يَرُدُّ الطرفَ وهو كَليـــل
رَسَا أصله تحت الثرى وسَما به
إلى النَّجم فَرْعٌ لا يُنَال طَوِيلُ[1]

وقال الأعشى :

كناطح صخرة يوما لِيَفْلِقَهـــا
فلم يَضِرْها وأَوْهَى قَرْنَه الوَعِـلُ[2]

فهذا كلام العرب . ومن هذا الباب قوله تعالى : [يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزلْنا عليكم لِباسًا يوارِى سَوْآتكم] [3] ومعلوم أن الله لم يُنْزِل من السماء ملابس تلبس ، وإنما

(١) قائله السموأل بن فريض بن عادياء اليهودى . وهو من شعراء الجاهلية . وكان مضرب المثل فى الوفاء . وأراد من الجبل العز والمنعة : ومنيع صفة مشبهة من منع ، ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول أى ممنوع من طالبه ـ والطرف : النظر . رسا : ثبت ـ والثرى : التراب الندى : وكليل : حسير أى هو ممتنع على طالبه يرد طرف الناظر إليه وهو حسير لارتفاعه :
الدرر اللوامع ١ـ٣٩ شرح الحماسة للمرزوقى ١ـ١١١

(٢) كناطح صفة لموصوف محذوف أى كوعل ناطح ، والوعل بتسكين العين وكسرها : التيس الجبلى .
الديوان ص ٢٦ ـ شواهد العينى ٣ـ٥٢٩ .

(٣) الأعراف : ٢٦ وتمامها : (وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) .

تأويله – والله أعلم – أنه أنزل المطر فنبت عنه النبات، ثم رعته البهائمُ، فصار صوفا وشعراً ووبراً على أبدانها، ونبت عنه القطن والكتان، فاتخذت من ذلك أصناف الملابس، فسمى المطرُ لباسًا، إذ كان سبباً لذلك على مذاهب[1] العرب فى تسمية الشيء باسم الشيء إذا كان منه بسبب، وهذا يسميه أصحاب المعانى: التدريج[2].

ونحوه قولهم للمطر سماء لأنه ينزل من السماء، وللنبت نَدًى لأنه عن الندى يكون، وللشَّحْم نَدًى، لأنه عن النبت يكون قال ابن أحمر:

كثَوْر العَدَاب الفَرْد يضربه الندى
تَعَلَّى الندى فى متْنِه وتَحدَّرا[3]

---

(١) فى ط: مذهب.

(٢) قال أبو حيان: وقيل الإنزال مجاز من إطلاق السبب على مسببه فأنزل المطر وهو سبب ما يتهيأ منه اللباس. وقال ابن عطية: أنزلنا يحتمل أن يريد بالتدريج أى لما أنزل المطر فكان عنه جميع ما يلبس. قال عن اللباس: أنزلنا وهذا نحو قول الشاعر يصف مطراً:

أقبل فى المستن من سحابه أسنمة الآبال فى ربابه

البحر المحيط ٤-٢٨٢. فسمى الماء: أسنمة الآبال لأنه سبب السمن وارتفاع الأسنمة.

(٣) فى بعض الروايات العذاب الفرد بالذال المعجمة، والصواب العداب بالدال المهملة وهو المستدق من الرمل حيث يذهب معظمه ويبقى

وقال معاوية بن مالك مُعَوِّد الحكماء :

إذا سقط السماء بأرض قـــــوم
رعينـــــاه وإن كانوا غضـــابا(١)

نحوه قول الراجز :

الحمد لله العزيز المَنَّـــــان
صار الثريدُ فى رؤوس العيـــدان(٢)

يريد السُّنْبُل .

ومن هذا الباب قوله – صلى الله عليه وسلم : ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا ثلثَ الليل الآخِرِ ، فيقول :

شىء من لينه قبل أن ينقطع وقيل هو جانب الرمل الذى يرق من أسفل الرملة ويلى الجدد من الأرض ، والفرد : المنفرد . والثور ذكر البقر ، والندى الأول : المطر ، والثانى الشحم ، وسمى الشحم ندى لأن المطر ينشأ عنه النبات فيأكله الثور فينمو له الشحم

انظر لسان العرب مادة (عدب) شرح شواهد الكشاف ص ٣٦

(١) يصف قومه بالعزة والصولة ولقب بمعود الحكماء لقوله القصيدة نفسها :

أعود مثلهـــا الحكماء بعدى إذا ما الحق فى الحدثان نابـا

انظر سمط اللآلىء ١-٤٤٨ الأمالى ١-١٨١ اللسان (سما) .

(٢) الراجز هو صعصعة بن بجير الهلالى يريد أن السنبل قد أفرك وأن القمح الذى يعمل منه الثريد قد صار فى رءوس من قضبان زرعه . انظر كنايات الجرجانى : ١٣٥ .

هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مُستغفِرٍ فأَغْفِرَ له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟[1] .

جعلته المجسّمة[2] نزولا على الحقيقة ـ تعالى الله عما يقول الجاهلون علوًّا كبيراً ـ وقد أجمع العارفون بالله تعالى على أنه لا ينتقل ، لأن الانتقال من صفات المحدثات . ولهذا الحديث تأويلان صحيحان لا يقتضيان شيئًا من التشبيه :

أحدهما : أشار إليه مالك بن أنس رضى الله عنه ، وقد سئل عن هذا الحديث ، فقال[3] : ينزل أمره فى كل سَحَر ، فأما هو عز وجل فإنه دائمٌ لا يزولُ .

---

(١) ورد فى البخارى كتاب التوحيد ٩ـ١٧٥ . وفى مسلم باب الترغيب فى الدعاء والذكر فى آخر الليل ٢ـ١٧٥ ومسند الإمام أحمد ٣ـ٢٥٨ ، ٢ـ٤٣٣ .

(٢) هم الذين جعلوا لله جوارح من يد ورجل ورأس ، وأجازوا عليه الملامسة والمصافحة ، وقد تقدم ذلك .

(٣) هذا يخالف ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام مالك فى كتابه شرح حديث النزول . قال : قال أبو عمرو الطلمنكى : أجمعوا ـ يعنى أهل السنة والجماعة ـ على أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، على ما أتت به الآثار ، كيف شاء ، لا يحدون فى ذلك شيئاً ، ثم روى بإسناده عن محمد بن وضاح . قال : حدثنا زهير بن عبادة . قال : كل من أدركت من المشائخ : مالك بن أنس ، وعبد الله بن المبارك ، ووكيع بن الجراح يقولون : النزول حق . وسألت يحيى بن معين عن النزول فقال : أقر به ، ولا تحد فيه حدا (شرح حديث النزول ص ١٨٢) .

وسئل عنه الأوزاعى فقال : يَفْعَل الله ما يشاء . وهذا تَلْوِيح يحتاجُ إلى تَصْرِيح ، وخَفِىٌّ إشارة يحتاج إلى بَيِّنِ عبارة .

وحقيقة الذى [ذهبنا إليه[1]] أن العرب تنسب الفعل إلى من أمر به كما تَنْسُبه إلى مَنْ فَعَله وباشره بنفسه ، فيقولون : كتب الأمير لفلان كتابا ، وقطع الأميرُ يد اللصِّ ، وضرب السلطانُ فلانا ألفَ سَوط ، وهو لم يباشر شيئًا من ذلك بنفسه . إنما أمر به ، ولأجل هذا احتيج إلى التأكيد الموضوع فى الكلام ، فقيل : جاء زيد نفسُه ، ورأيت زيداً نفسَه .

فمعناه على هذا أن الله تعالى يأمر مَلكا بالنزول إلى السماء الدنيا ، فينادى بأمره ، وقد تقول العرب جاء فلان ، إذا جاء كتابه ووصيته ، ويقولون للرجل : أنت ضربت زيداً ، وهو لم يضربه - إذا كان قد رضى بذلك وشايع عليه قال الله تعالى : [فِلمَ تقتلون أنبياء الله ؟][2]. والمخاطبون بذلك لم يقتلوا نبياً ، ولكنهم

(١) هكذا فى ا وفى ب ، ط (ذهبا إليه) يقصد مالكا والأوزاعى. وفى ط رحمهما الله .

(٢) البقرة : آية ٩١ .

لما رضوا بذلك ، وتَوَلَّوْا قتلةَ الأنبياء ، وشايعوهم على فعلهم تسب الفعل إليهم ، وإن كانوا لم يباشروه .

وعلى نحو هذا يُتَأَول قوله تعالى : [فأَتَى اللهُ بُنْيانَهُم مِنَ القَواعِد][1].

فهذا تأويل كما تراه صحيح جاء على فصيح كلام العرب فى محاوراتها ، والمتعارف من أساليبها[2] ، وهو شرح ما أراده مالك والأوزاعى رحمهما الله .

ومما يقوى هذا التأويل ، ويشهد بصحته أن بعض أهل الحديث رواه . يُنْزِل اللهُ ، بضم الياء وهذا واضح .

والتأويل الثانى أن العرب تستعمل النزول على وجهين أحدهما حقيقة ، والآخر مجاز واستعارة[3] .

---

(١) النحل : آية ٢٦ .

(٢) فى ب ، ط زيادة (ومخاطباتها) .

(٣) هذا الكلام يخالف مذهب السلف الذين يأبون التأويل ، فمذهب السلف يثبت لله النزول كما يثبت له اليد والرجل والفوقية من غير كيف ولا تشبيه ، فليس نزوله كنزول الحوادث ولا يده كيدهم ولا وجهه كوجههم ، متبعين فى ذلك ظواهر القرآن والسنة ، ونعنى الظواهر الحرفية لا المجازية . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

ليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — ولا عن أحد من سلف الأمة ؛ ولا من الصحابة والتابعين ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا =

. . . .

= زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك لانصاً ولا ظاهراً، ولم يقل أحد منهم : إن الله ليس فى السماء ، ولا أنه ليس على العرش . ولا أنه فى كل مكان . . ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها (أنظر الحموية الكبرى ٤١٩) ويقول فى شرح حديث النزول نافياً التشبيه ص ١١ :

وهنا نعلم أن الله لا مثل له ، ولا كفو ، ولا ند ، فلا يجوز أن نفهم من ذلك أن علمه مثل علم غيره ، ولا كلامه مثل كلام غيره ، ولا استواءه مثل استواء غيره ، ولا نزوله مثل نزول غيره ، ولا حياته مثل حياة غيره . ولهذا كان مذهب السلف والأئمة إثبات الصفات ونفى مماثلتها لصفات المخلوقات .

فالله تعالى موصوف بصفات الكمال الذى لا نقص فيه ، منزه عن صفات النقص مطلقاً ومنزه من أن يماثله غيره فى صفات الكمال . فهذان المعنيان جمعا التنزيه ، وقد دل عليهما قوله تعالى (**قل هو الله أحد الله الصمد**) فالاسم الصمد يتضمن صفات الكمال ، والاسم الأحد يتضمن نفى المثل .

كيف ينزل ؟ :

ويسوق ابن تيمية رأى السلف فى كيفية النزول . وهو أنهم يفهمون معنى النزول ، ولكن لا يعرفون كيفيته ويفوضون ذلك إلى الله . فيروى أن سائلا سأل الإمام مالكا رضى الله عنه عن كيفية الاستواء . فقال الإمام مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وما أراك إلا رجل سوء . ثم يقول شيخ الإسلام :

وهكذا سائر الأئمة قولهم يوافق قول مالك فى أنا لا نعلم كيفية الاستواء كما لا نعلم كيفية ذاته ، ولكن نعلم المعنى الذى دل عليه الخطاب . فنعلم معنى الاستواء ولا نعلم كيفيته ، وكذلك نعلم معنى النزول ، ولا نعلم كيفيته ، ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدرة ، ولا نعلم كيفية ذلك . =

فأما الحقيقة فانحدار الشيء من عُلو إلى سُفْل كقوله تعالى : [ويُنَزِّل مِنَ السَّماء من جبال فيها من بَرَد(١)] .

وكقول امرىء القيس :

هو المُنزِل الأُلَّافِ من جَوِّ نَاعطٍ
بني أَسَد حَزْنًا من الأَرض أَوْعَرا(٢)

رأى شيخ الإسلام ابن تيمية فى تأويل النزول :

قال : وتأويل النزول بنزول الملك أو بنزول الأمر أو الرحمة فاسد لأن الحديث كما ورد فى البخارى : ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفر نى فأغفر له ؟ فلو كان النازل ملكا ما قال ذلك بضمير التكلم ، لأنه لا يجيب الدعاء ، ولا يعطى كل سائل ، ولا يغفر الذنب إلا الله. وكذلك الأمر . وكذلك لا يمكن تأويل نزوله بنزول الرحمة تنزل إلى الأرض لتعم الخلق لا إلى سماء الدنيا وإذا نزلت لا تصعد ، وقد ورد فى بعض الروايات : ثم يصعد (حديث النزول ص ٣٩) .

ثم إن السلف يرفضون التأويل لأن الله تعالى يقول : (**فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله**) . ولأن التأويل أمر مظنون فيه بالاتفاق ، والقول فى صفات البارى بالظن غير جائز .

(١) النـــور : ٤٣ .

(٢) هذا بيت ضمن أبيات يفخر فيها على بنى أسد ، ويخوفهم منه : وجو : أرض باليمامة ، وناعط : حصن بأرض همدان . أى عليكم يا بنى أسد أن تلزموا الحزن من الأرض ، وأن تنزلوا بما غلظ من الأرض وخشن والتحصن بالجبال ، وهذا وعيد منه .

انظر خزانة الأدب ٣-٦٠١ ، ٤-١٦١ ، والديوان ص ٦٥

وأما الاستعارة والمجاز فعلى أربعة أوجه :

أحدها : الإقبال على الشيء بعد الإعراض ، والمقاربة بعد المباعدة يقال : نزل البائع فى سلعته إذا قارب المشترى بعد مباعدته ، وأمكنه منها بعد منعه ، ويقال : نزل فلان عن أهله : أى تركها وأقبل على غيرها ، ومنه قول الشاعر :

أنزلنى الدهر على حكمه

من شاهق عال إلى خَفْضِ[1]

أى جعلنى أقارب من كنت أباعده ، وأقبل على من كنت أعرض عنه ، فيكون معنى الحديث على هذا :

---

(١) رواية الحماسة : من شامخ . والشامخ ، والشاهق : العالى : والخفض ضد الرفع وهو مصدر بمعنى المفعول أى إلى مكان مخفوض . يريد كنت قوياً غنياً فصيرنى الدهر إلى الضعف ، وهذا البيت من قصيدة لحطاب بن المعلى كما فى شرح الحماسة للمرزوقى ، ولكن فى شرح الحماسة للتبريزى يرجح أن اسمه حطان بن المعلى . ومن أبيات القصيدة :

أبكانى الدهر ويا ربما	أضحكنى الدهر بما يرضى
لولا بنيات كزغب القطا	رددن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع	فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا	أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم	لامتنعت عينى من الغمض

شرح الحماسة للتبريزى ١-٢٧٨ ، شرح الحماسة للمرزوقى ١-٢٨٥ .

إن العبد فى هذا الوقت أقرب إلى رحمة الله تعالى منه فى غيره من الأوقات وأن البارى تعالى يقبل على عباده بالتَّحنُّنِ والتعطف فى هذا الوقت بما يلقيه فى قلوبهم من التَّنْبِيه والتذكير الباعثين لهم على الطاعة والجد فى العمل ، فهذا أيضا تأويل ممكن صحيح .

[فأما][1] الأقسام الباقية من معنى النزول فلا مدخل لها فى هذا الحديث ، وإنما نذكرها لتوفية معنى النزول ولأنها مما يحتاج إليه فى غير هذا الحديث .

فمنها ما يراد به ترتيب الأشياء ووضعها مواضعها اللائقة بها ، كقوله تعالى : [ونَزَّلْنَاه تَنْزِيلا[2]] . أى رتبناه مراتبه ووضعناه مواضعه ، ومن ذلك قولهم : نزل فلان عند الملك منزلة حسنة ، أو مَنْزِلةً قبيحة ، ومنه قول الشاعر :

أَنْزِلُوها بحيثُ أَنزلها الله بدار الهوان والإِتْعَاسِ[3]

(١) فى ط وأما :

(٢) الإسراء : ١٠٦ . والآية بتمامها : (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) .

(٣) هذا البيت من قصيدة أنشدها سديف بن ميمون مولى أبى العباس السفاح يحرضه على الأمويين ، وقبل هذا البيت :

لا تقيلن عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة وغراس

ومنها ما يراد به الإعلام والقول كقوله تعالى : [ومَنْ قَال سَأُنزِلُ مثل ما أَنزلَ اللهُ][1] . أى أقول مثل ما قال الله وأُعلم بمثل ما أَعْلَمَ . ومن هذا إنزال الوحى إنما معناه أن جبريل تَلَقَّاهُ عن الله تعالى وأَدَّاه إلى محمد صلى الله عليه وسلم – وهو راجع إلى معنى الإقبال الذى قدمناه .

ومنها ما يراد به الانحطاط (عن)[2] المرتبة والذلة كقولهم : نَزَلَتْ منزلةُ فلان عند الملك . أى انحطت ، ويجوز[3] أن يكون قوله :

أنزلنى الدهر على حكمه

من هذا المعنى .

— ثم قال :

أقصهم أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس

والرقلة : النخلة الطويلة التى تفوت اليد . ويرجح بعض علماء الأدب أن الأبيات لشبل بن عبد الله مولى بنى هاشم .

انظر تعليق الأغانى ٤ـ٢٣٥ . الكامل ٤ـ٨ العقد الفريد ٤ـ٤٨٦ .

(١) الأنعام : ٩٣ : وتمامها (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) .

(٢) فى (من) .

(٣) فى ط ولا يجوز . وهو واضح الفساد .

وقد تَستَعْمل العرب النزول فى النماء والزيادة ، وهو ضد ما ذكرناه قبل هذا ، فيقولون : طعام له نَزَلٌ . أى بركة ونماء ، وأرض نَزْلة . إذا كانت كثيرة الكلأ[1] وتركت القوم على نزلاتهم إذا كانوا فى خصب وحسن حال .

وقد يستعملونه أيضاً على معنىً آخر يقولون : نزلَ القومُ إذا أتْوا مِنىً ، ويقال لِمنىَ المَنازِل قال الشاعر :

أنازلة يا أسمَ أم غير نازلهْ
أبِينِى لنا يا أَسْمَ ما أنتِ فاعِلَهْ[2]

فجميع مواضع هذه الكلمة سبعة . فهذه وجوه النزول فى كلام العرب .

ومما غلطت فيه المجسمة أيضاً قوله تعالى :

[اللهُ نُورُ السمواتِ والأَرضِ][3].

---

(١) انظر اللسان (نزل) .

(٢) هذا البيت ذكره صاحب اللسان شاهداً على أن نزل تأتى بمعنى : أتى منى ونسبه لعامر بن الطفيل . اللسان (نزل) .

(٣) سورة النور : ٣٥ . والآية بتمامها : (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم) .

فتوهموا أن ربهم نور ـــ تعالى الله عن قول الجاهلين ـــ وإنما المعنى : الله هادى أهلَ السموات والأَرض . والعرب تسمى كل ما (جَلَّى)[1] الشُّبُهاتِ ، وأزال الالتباس ، وأوضح الحق نورا .

قال الله تعالى : [وأَنْزَلْنا إليكم نوراً مُبينًا][2].

يعنى القرآن . وعلى هذا المعنى سمَّى نبيه صلى الله عليه وسلم سِرَاجًا مُنيرا[3] .

وقال العباس بن عبد المطلب يمدحه :

وأنت لمـــا ظَهَرتَ أَشْرَقَت
الأَرض وضاءَتْ بنُورك الأُفقُ[4]

---

(١) فى ب (جلا) بالتخفيف .

(٢) سورة النساء : ١٧٤ . وتمام الآية : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نوراً مبينا) .

(٣) فى ط زيادة (فقال عز من قائل) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) .

(٤) هذا البيت ضمن أبيات قالها العباس عم الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فقد قال العباس يا رسول الله !! أريد أن امتدحك ، فقال الرسول ـــ عليه السلام : قل لا يفضض الله فاك . ورواية البيت السيرة هكذا :

وأنت لمـــا ولدت أشرقت الأر ض وضـــاءت بنورك الأفـــق
فنحن فى ذلك الضيـــاء وفى الـ ـنور وسبل الرشـــاد نخـــترق

السيرة لابن كثير ١-١٩٥ .

وعلى هذا مجرى كلام العرب . قال امرؤ القيس :

أَقَـرَّ حشَى امرئِ القَيس بن حُجْر
بنو تيمٍ مصابيحُ الظَّـلام (١)

وقال النابغة الذبيانىُّ :

لا يُبْعِدِ اللهُ جيرانًا تركتُهمُ
مثلَ المصابيحِ تَجلُو ليلةَ الظُّلم (٢)

وقال الآخر :

من تَلْقَ منهمُ تَقُلْ لاقيتُ سيِّدَهُمْ
مثلُ النُّجوُم التى يَسْرِى بها السَّارِى (٣)

---

(١) هذا البيت من قصيدة يمدح بها المعلى أحد بنى تميم ، وكان قد لجأ إليه فحماه ، ويقصد من قوله : (أقر حشى امرئ القيس) أنه أمن فيهم فلم تضطرب أحشاؤه . ويقصد من قوله: (مصابيح الظلام) أنهم كالسراج فى الظلام لفضلهم وكشفهم الأمور المبهمة بصحة رأيهم وثاقب فكرهم . شرح الديوان ص ١٤١ طبعة دار المعارف .

(٢) هذا البيت ساقط من ب وهو من قصيدة يمتدح بها النابغة الغساسنة حين ارتحل عنهم ، ويعنى أنه يهتدى بآرائهم فى المشكلات . كما يهتدى بالمصابيح فى الظلام .

(٣) الشاعر هو العرندس أحد بنى بكر بن كلاب ، وقيل عقيل بن العرندس أو عبد بن العرندس وهذا البيت أحد أبيات يصف فيها قوماً نزل بهم ويمدحهم ، وهو يريد أن النباهة والسيادة تعم هؤلاء القوم ، فكل منهم يتسم بالسيادة . وهم فى الشهرة والتميز عن سائر الناس كالنجوم التى يهتدى=

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »[1]. ولو مُنِحَتْ المجسِّمَةُ طرفاً من التوفيق ، وتأملت الآية بعين التحقيق لوجدت فيها ما يبطل دعواهم[2] دون تكلف تأويل ، ومن غير طلب دليل ، لأنه قال تعالى بعقب الآية :

[ويَضرِبُ اللهُ الأَمثالَ للنَّاسِ واللهُ بكل شَيْءٍ عليمٌ][3]

=بها السابلة فى الليالى المظلمة– يقول صاحب ديوان المعانى إنها أمدح أبيات قيلت . (ديوان المعانى ١-٤١ . الأمالى ١-٢٣٩ . الكامل ١-٧٨ . شرح الحماسة للمرزوقى ٤-١٥٩٠) .

(١) رواه البيهقى وأسنده الديلمى عن ابن عباس بلفظ أصحابى بمنزلة النجوم فى السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم . وقال ابن عبد البر طاعناً فى إسناده (هذا اسناد لا يقوم به حجة لأن أحد رواته وهو الحارث بن غصين مجهول . وقال ابن حزم هذه رواية ساقطة (كشف الخفاء ١-١٤٧) .

(٢) قال الإمام القرطبى فى تفسيره : النور فى كلام العرب الأضواء المدركة بالبصر ، واستعمل مجازا فيما صح من المعانى ولاح ، ومن ذلك : الكتاب المنير . ثم قال فيجوز أن يقال الله نور من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء . ونور جميع الأشياء منه ابتداؤها ، وعنه صدورها وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة .

وقد قال هشام الجوالقى وطائفة من المجسمة هو نور لا كالأنوار وجسم لا كالأجسام . وهذا كله محال عقلا ونقلا ، ثم إن قولهم متناقض فإن قولهم جسم ونور حكم عليه بحقيقة ذلك ، وقولهم لا كالأنوار ولا كالأجسام نفى أثبتوه من الجسمية والنور وذلك تناقض (١٢-٢٥٦) . وقال ابن كثير (الله نور السموات) عن ابن عباس هادى أهل السموات والأرض ٣-٢٨٩ .

(٣) النور ٣٥ جزء من الآية التى سبق ذكرها .

فأخبرنا أن ما ذكره فى الآية العزيزة من النور والمشكاة والمصباح والزجاجة والزيتونة والشجرة أمثال مضروبة يعقلها عن الله تعالى من وفق لفهمها وكشفت له الحجب عن مكنون سرها وعِلْمِها كما قال تعالى :

[وتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُها إلا العالِمون][1] .

فإن قالت : كيف وقع هذا التمثيل ، وما المراد به ؟

فالجواب أنه شبه صدر المؤمن بالمشكاة ، وقلبه بالزجاجة ، ونور الهدى الذى يضعه فى قلبه بالمصباح ، وشبه مادة الهدى المنبعثة [من][2] قِبل الرسول صلى الله عليه وسلم التى تزيد فى بصائر المؤمنين ، وتَحفظُ نورَ الإيمان عليهم ، وتمنعه من أن يغلب عليه الشك فيطمسَه بمادة الزيت التى تمدُّ المصباح لِئَلاَّ يُطْفأَ نورُه ، وشَبَّهَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالزيتونة ، إذ كان الهدى إنما ينبعث من قبله كانبعاث الزيت من الزيتونة . وجعل الزيتونة لا شرقية ولا غربية لأن ظهوره ومبعثه إنما كان بمكة ، ومكة متوسطة بين المشرق والمغرب .

---

(١) العنكبوت : ٤٣ .

(٢) ساقطة من ط .

فهذا كلام كما ترى قد خرج على أحسن مخارج الكلام وتشبيه جاء على أبدع وجوه التشبيه .

فهذا ونحوه من الحقيقة والمجاز العارِضَيْن فى موضوع الكلمة . وأما الحقيقةُ والمجاز[1] العارضان فيها من قبل أحوالها[2] فإنهما كثيران أيضا ككثرة النوع الأول فمن ذلك قولهم : مات زيدٌ فيرفعونه كما يرفعون قولهم أمات الله زيداً وأحدهما حقيقة والآخر مجاز و [منه][3] قوله تعالى :

[فإذَا عَزمَ الأَمرُ][4] . والأَمر لا يَعْزِمُ وإنَّما يُعزَم عَلَيْه قال النابغة :

وإن الدِّين قد عَزَّ مَا[5] .

---

(۱) يقصد ما يسميه علماء البيان المجاز العقلى . وهو إسناد الفعل إلى غير ما هو له .

(۲) هكذا فى ب وفى ا فيهما وأحوالها . وهو تحريف .

(۳) زيادة فى ب .

(٤) محمد : ۲۱ . والآية هى : (طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) .

(٥) هذا جزء بيت وتمامه كما فى الديوان :

حياك ربى فإنا لا يحل لنا ... لهو النساء وإن الدين قد عزما

يخاطب الشاعر سعاد التى يقول عنها فى مطلع القصيدة :

بانت سعاد وأمسى حبلها انجزما

وهو يقصد من الدين الحج . وعزم أى عزمنا عليه . وهو من باب القلب . وهو الذى يسميه علماء البيان المجاز العقلى .

(انظر الديوان ص ۱۲۸) :

ويقولون : أُعْطِيَ ثَوْبٌ زيداً ، وإنما الوَجْه أعطى زيد ثوبا ، لأن زيدا هو الآخذ للثوب والمتناول له . وولد له ستون عاماً . والمعنى وُلِدَ له الأَولادُ فى ستين عامًا .

ونحوه قوله تعالى : [بل مَكْرُ الليلِ والنَّهارِ] [1]

و [إنما] [2] المراد بل مكركم فى الليل والنهارِ ، وأنشد سيبويه :

أما النهارُ ففى قيدٍ وسِلْسِلَةٍ
والليلُ فى قَعْرِ مَنْحوت من السَّاج [3]

وتقول العرب : نَهارُكَ صَائم ، وليلك قائم

[وقال [4]] جرير :-

---

(١) سبأ : ٣٣ .

(٢) ساقطة من ط .

(٣) هذه رواية سيبويه ورواية ابن السيد (والليل فى بطن منحوت) أخبر الشاعر عن النهار بأنه فى سلسلة . وعن الليل باستقراره فى جوف منحوت الساج وجازاً فقد وصف محبوساً يقيد بالنهار ويغل فى سلسلة ، ويوضع فى الليل فى جوف خشبة منحوتة من خشب الساج .
(انظر سيبويه ١-٨٠ . الكامل للمبرد ص ٧٠٠ . المقتضب ٤-٣٣١) .

(٤) فى الأصل قال .

لقد لُمتِنَا يا أُمَّ غَيلانَ فى السُّرَى
ونِمتِ وما لَيْلُ المطىِّ بنـائِم[1]

وقال حُمَيد بن ثَور الهِلالىُّ :

ومَطْوِيَّةِ الأَقراب أَمَّا نهارُهـــا
فَسَبْتٌ وأَما لَيْلُهَا فَذَمِيـــلُ[2]

وأما المجازُ والحقيقةُ العارضان من طريق التركيب وبناء بعض الألفاظ على بعض فنحو الأمر يرد بصيغة الخبر ، والخبر يرد بصيغة الأمر ، والإيجاب يرد بصيغة النفى ، والنفى يرد بصيغة الإيجاب ، والواجب

(١) أخبر الشاعر عن الليل بالنوم اتساعاً ومجازاً ، والمعنى وما المطى بنائمة فى الليل . يقول إنه عدل فى السرى ومواصلة السير ، ويقول : يلومنا فى ذلك من ينام عنه ونصلى نحن شدته دونه لما نرجو من الفائدة فلا نصغى إلى لومه فيه وعذله . وأم غيلان : بنت جرير .
(انظر الديوان ص ٥٥٤) .

(٢) الأقراب : جمع قرب (بضمتين وبضم القاف وتسكين الراء) وهو الخاصرة ، أو من الشاكلة إلى مراق البطن . ورواية الجمهرة : عقورة الألياط . والأقورار : الضمور ، والألياط : جمع ليط وهو الجلد . والسبت : السير السريع ؛ وفى رواية الأغانى : فنص . والنص : أقصى السير ، والذميل : السير اللين . وحميد بن ثور بن عامر الهلالى شاعر مخضرم قضى الشطر الأكبر من حياته فى الإسلام . توفى فى خلافة عثمان — رضى الله عنه — وقيل زمن عبد الملك بن مروان .
(انظر الديوان ص ١١٦ مطبعة الدار القومية بالقاهرة) .

يرد بصيغة الممكن أو الممتنع ، والممكن والممتنع يردان بصيغة الواجب ، والمدح يرد بصورة الذم ، والذم يرد بصورةِ المدحِ ، والتقليل يرد بصورة[1] التكثير ، والتكثير يرد بصورة التقليل ، ونحو ذلك من أساليب الكلام التى لا يقف عليها إلا من تحقق بعلم اللسان .

وكل نوع من هذه يقصد[2] به غرض من أغراض البيان ، ونحن نذكر من كل نوع من هذه الأنواع أمثلة تشهد بصحة ما قلناه ليُحتَذَى فيما لم نذكره على ما ذكرناه إن شاء الله تعالى .

أما الأمر الوارد بصيغة الخبر فكقولهم : حَسْبُكَ درهم ، فإن صيغة هذا الكلام كصيغة قولك أخوك منطلق ، وأبوك زيد ، ومعناه معنى الأمر لأن تقديره يكفِيكَ درهمٌ ، أو اكتفِ بدرهم قال امرؤ القيس :

وحَسْبُكَ مِن غنىً شِبَعٌ وَرِىٌّ[3]

---

(١) فى ط بصيغة (٢) فى ط مقصود .

(٣) هذا عجز بيت صدره : فتوسع أهلها أقطاً وسمنا . .

الأقط شىء يصنع من اللبن المخيض على هيئة الجبن . والمعنى أن الإنسان إذا لم يطلب من الدنيا إلا الحياة والعيش دون الملك والرئاسة فالقليل من العيش يكفيه (انظر الديوان ص ٦٣٧) ٥

ومن هذا قولهم فى الدعاء : غفر الله لزيد ، ورحمك الله ، وسلام عليك . ومنه قوله تعالى : [والْوَالِداتُ يُرْضِعْنَ أَولادَهُن حَوْلَين كامِلَين لمن أَرادَ أَنْ يتمّ الرضاعة] [1] .

وإنما المعنى ليرضِع [2] الوالدات أولادهن لم يخبرنا [3] وإنما أمرنا [4] . وأما الخبر الوارد بصيغة الأمر فكقولهم فى التعجب : أَحْسِنْ بزيد ، فإن صيغته كصيغة قولك أحسن إلى زَيد ، وأحدهما خبر ، والآخر أمر ، لأن معنى أحسن بزيد : ما أَحْسَنَ زيدا فإنما أنت مخبرٌ لا آمر ، ومكان الباءِ وما عملت فيه رفع ، ومكان إلى وما عملت فيه نصب . ومنه قوله تعالى : [أَسْمِع بِهِم وأَبصِر [5]] أى ما أَسْمَعَهم وأبصرهم .

وأما الإيجاب الوارد بصيغة النفى فكقولهم [6] : مازال

---

(١) البقرة : صدر آية ٢٣٣ .
(٢) فى ط . لترضع .
(٣) فى ب وط : لأنه لم يخبرنا .
(٤) قال القرطبى : خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات وعلى جهة الندب لبعضهن (٣ - ١٦١) .
(٥) مريم : ٣٨ . تمامها : «أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين » .
(٦) فى ط : فكقولك .

زيد عالما . فإن صيغته كصيغة قولك ما كان زيد عالما ، الأول إيجاب ، والثانى نفى ، فإذا أدْخَلت على هذه الجملة إلا التى للإيجاب ، فقلت ما زال[1] زيد إلا عالماً صارت صيغته صيغة الموجب ، ومعناه معنى النفى ، والعلة فى ذلك أن قولك : « زال زيد عالماً لو كان مما يستعمل لكان معناه النفى ، لأن معناه زال عن العلم وانتفى منه ، فإذا أدخلت عليه ما النافية رجع إيجاباً ، لأن النفى الثانى يبطل النفى الأول ، فإذا أدخلت إلّا بطل النفى الثانى الذى أوجبته ما ، وعاد النفى الأول إلى حاله ، فصار قولُك ما زالَ زيدٌ إلّا عَالِمًا بمنزلة قولك : زال زيد عالما .

فمن النحويين من يرى أن قولك « ما زال زيد إلا عالماً إنما امتنع من الجواز لأن دخول ما فى صدر المسألة يوجب له العلم ، ودخول إلا فى آخرها تَنْفى عنه العلمَ ، فتصير (نافيا مثبتا][2] للخبر فى حال واحدة .

---

(١) هذا افتراض من المؤلف لا غير لأنه لا يجوز مثل هذا فى الأساليب العربية كما سيأتى .

(٢) عبارة ب تصير مثبتاً نافياً .

ومنهم من يقول إنما استحال لأن دخول إلا عليه تبطل[1] ما لأنها مناقضة لها فكأنك قلتَ : زال زيد عالما ، وهذا غير جائز ، لأن العرب لم تستعمل زال الداخلة على الابتداء والخبر إلا مع ما[2] .

ومنهم من يقول : إنما استحال لأن قولك ما زال زيد عالما كلام موجب وإن كان بصورة النفى[3] ، فلما كان كذلك لم يجز دخول إلا عليه ، لأن إلَّا إنما وضعت لتوجب ما كان منفيا قبل دخولها ، فإذا كان الكلام موجبا بنفسه استغنى عنها .

ومن طريف هذا النوع قول الفرزدق :

بِأَيْدِى رِجَالٍ لم يَشِيمُوا سيوفهم
ولم تكثر القَتْلَى بها حِينَ سُلَّتِ[4]

---

(١) فى لط يبطل .

(٢) يقصد مع نفى ولو بغير ما . نحو لا زال زيد عالما ، ومثل النفى النهى الداخل على المضارع .

(٣) فى ب المنفى .

(٤) شام السيف يشيمه : إذا أغمده أو إذا سله فهو من الأضداد : وهو هنا بمعنى أغمده . ومن ذلك قول أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — حين شكى إليه خالد بن الوليد ، وطلب منه عزله عن القيادة (لا أشيم سيفا

قال أصحاب المعانى : معناه لم يَشيموا سيوفهم إلا وقد كثرت القتلى بها حين سُلَّت . فمعناه كما ترى إيجاب ، وصيغته وظاهره نفى ، وإنما وجب هذا لأن قوله : « ولم تكثر القتْلى » ليس بجملة منقطعة من الجملة التى قبلها . معطوفة عليها على حد عطف الجُمل على الجمل ، وإنما هى فى موضع نصب على الحال من السيوف ، وتقدير الكلام : لم يشيموا سيوفهم غير كثيرة القتلى بها حين سُلَّت .

فصار بمنزلة قولك : لم يجئْ زيد ولم يركب فَرسَه . إذا جعلت قولك : ولم يركب فرسه فى موضع الحال من زيد . تقديره : لم يجئْ زيد غير راكب فرسه ، فمحصول أنه جاء راكبا فرسه . فظاهره نفى ، ومعناه إيجاب .

وقد يجوز فى المسألة أن يريد أنه لم يجئْ ، ولم يركب

= سله الله على المشركين) أى لا أغمده قال المبرد (فى الكامل ١-١٢٧) : وهذا البيت ظريف عند أصحاب المعنى وتأويله : لم يشيموا لم يغمدوا ولم تكثر القتلى أى لم يغمدوا سيوفهم إلا وقد كثرت القتلى حين سلت :

والفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة التميمى شاعر اسلامى عاش فى العصر الأموى وكان بينه وبين جرير والحطيئة مهاجاة . .

فتنفى الفعلين معاً ، وتجعلهما جملتين ليست إحداهما متعلقة بالأخرى إلا على جهة العطف فقط .

وأما النفى الوارد بصورة الإيجاب فنحو قولهم لو جاءنى زيد لأكرمته . فصورته صورة كلام موجب ؛ لأنه ليست[1] فيه أداة من أدوات النفى ، وهو منفى فى المعنى لم يقع[2] المجىء ولا الإكرام ، فإذا دخل عليه حرف النفى ، فقيل : لو لم يشتمنى زيدٌ لم أَضْرِبْه صارت صورته صورة النفى[3] ، ومعناه معنى الواجب[4] ، ومن أجل هذا قال النحويون فى قول امرئ القيس :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفانى ولم أطلب قليل من المال[5]

---

(١) فى ط ليس .

(٢) لأن لو حرف يدل على امتناع الشرط دائماً والجواب قالياً إثباتاً ونفياً .

(٣) فى ب ، ط المنفى :

(٤) فى ب ، ط الموجب . أى ثبت الشم والضرب وذلك لأنه إذا امتنع الشيء ثبت نقيضه وقد امتنع عدم الشتم وعدم الضرب .

(٥) بعد هذا البيت :

ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

والمؤثل : المثمر الذى له أصل . والمعنى لو كان سعيى لأقرب معيشة وأدناها لكفانى قليل من المال ، ولم أطلب الملك ، ولكننى أسعى لمجد مؤصل كثير . (الخزانة للبغدادى ١-١٥٨ . الديوان ص ٣٩) .

إن نصب القليل ها هنا محال ، لأنه لو نصبه لأوجب أنه قد طلب قليلا من المال ، وهذا خلاف ما أراده الشاعر ، ألا تراهُ يقولُ بعد هذا :

ولكنما أسْعَى لمجد مُؤثَّل
وقد يُدرِكُ المجدَ المؤثَّل أمْثَالى

فأخبر ببعد همته وعلوها ، وأنه إنما يطلب الملك والرياسة ، ألا ترى أن النحويين قد جعلوا قوله : « ولم أطلبْ قليلا[1] » بالنصب إيجاباً وظاهره نفى . وإنما عرض هذا من قبل دخول لو فى أول البيت . وقد أعلمتك أن إيجابها نفى ونفيها إيجاب .

ومن هذا قوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كلَّ نفس هُداها »[2] .

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً »[3]

---

(١) فى ط زيادة من المال .

(٢) السجدة : ١٣ . والآية بتمامها : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين

(٣) يونس : ٩٩ وتمامها : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

وأما ورود الواجب بصورة الممكن فكقوله تعالى :

[فعسى الله أن يأتي بالفتح][1] وقوله تعالى : [عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً][2] .

وهذا واجب ثابت ، وصورته صورة الممكن المشكوك فيه ، والعرب تفعل هذا تحريراً للمعاني واحتياطا عليها ، ومنه قول الشاعر :ـ

لَعَلِّي إِذَا مالَتْ بِيَ الريحُ مَيْـلَةً
على ابن أَبِي زَيَّانَ أَن يَتَنَدَّما[3]

فأخرج كلامه مخرج الإمكان[4] ، وإنما[5] يريد أنه يتندمُ لا محالة .

وأما ورود الممتنع بصورة الممكن فكقول امرئ القيس :

---

(١) المائدة ٥٢ والآية بتمامها (فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) .

(٢) الإسراء : ٧٩ . وتمام الآية (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) .

(٣) لم يعرف قائله وفى ط (لعلى إن) بدل (إذا) و (زبان) بدل (زيان) . وفى الصاحبي لابن فارس : زبان بالباء وكسر الذال .

(٤) فى ط الممكن .

(٥) فى ب وأنه .

وبُدِّلْتُ قَرْحًـــا دامِيًـــا بعدَ صحة
لعــلَّ مَنَايانَا تَحَوَّلْن أَبْؤُسًـــا[١]

وتحول المنايا أبؤسا من الممتنع الذى[٢] لا يمكن وقد جعله كما ترى فى صورة الممكن على العلم منه[٣] أنه ليس كذلك تقلُّلاً[٤] بذلك واستراحة[٥] مما كان فيه من عظيم البلاء .

ونحوه قول كعب بن سعد الغَنَوِيِّ يرثى أخاه :ـ

وَدَاعٍ دعَا يا من يُجيبُ إلى النَّـدى
فلمْ يَسْتَجبهُ عند ذاك مُجيبُ[٦]

---

(١) يقصد بقوله : (وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة) ما أصابه فى جسمه من الحلة المسمومة التى بعث بها إليه ملك الروم . ومعنى (لعل منايانا تحولن أبؤسا) يريد : لعل ما بى من شدة الحال والبلاء عوض من الموت وبدل منه (الديوان ص ١٠٧ . الدرر اللوامع ١ـ٨٣) .

(٢) الذى : ساقطة فى ط .

(٣) فى ط : بأنه .

(٤) فى ط زيادة : منه .

(٥) فى ب واستَرواحة .

(٦) هذه الأبيات من قصيدة يرثى بها أخاه ويكنى أبا المغوار . والواو واو رب ـــ والداعى : السائل . يستجبه : استجاب . إذا عدى إلى الداعى عدى باللام فيقال استجبت له . وبنفسه . فيقال : استجبته . وإذا عدى إلى الدعاء تعدى بنفسه . وقيل إن استجاب هنا بمعنى أجاب أى لم يجبه . وفى ط وفى شواهد النحو (جهرة) بدل (دعوة) وفى ط لعل أبى بالجر ، وفى الأمالى إنه مجيب بدل نجيب .

وكعب شاعر إسلامى وهو من بنى سالم بن عبيد بن سعد بن عوف : (انظر الأمالى ١ـ١٥٠ . الخزانة ٣ـ٦٢١ ، ٤ـ٣٧٥)

فقلتُ ادع أُخرى وارْفَعِ الصوت دعوةً
لعل أبا المغوار منك قريب

يُجِبْك كما قد كان يَفْعَل إنه
نَجيبٌ لأَبواب العلاء طَلوبُ

وقال النابغة يرثى النعمان :

فإنْ تَحْىَ لا أَمْلَلْ حيَاتِى وإن تَمُتْ
فما فى حياةٍ بعدَ مَوْتِك طَائلُ[1]

ومن هذا قولُ الرجل المحرَّق لبنيه[2] :

« إذا أنا مِتٌّ فَأَحرقونى ، ثم اذرُوا رمَادِى فى اليَمّ ، فلَعَلّى أُضِلُّ اللهَ ، فواللهِ لَئِن قَدَر اللهُ عَلَىَّ لَيُعَذِّبَنِّى عذابا شديداً » .

ألا ترى أنه قد أخرج ما قد تحقق أنه لا يكون مُخْرَج ما يرجى أن يكون ، تَقَلُّلاً بذلك ، واستراحة[3]

(١) البيت من قصيدة يرثى بها النعمان بن الحارث الغسانى لا النعمان ابن المنذر . والرواية فى ط (فى حياتى) وهى مخالفة لرواية الديوان . والمعنى : ما دمت حياً لا أمل الحياة لما أجد منك من أنس ونفع ، وإن تمت فلا خير فى الحياة بعدك (شرح الديوان ٦٢) .

(٢) ورد فى مسلم ٨-٩٧ باب التوبة بروايتين وليس فيهما (فلعلى أضل الله) ، وفى البخارى كتاب التوحيد ٩-١٧٩ وليس فيه (لعلى أضل الله) وفى مسند الإمام أحمد ١-٣٩٨ .

(٣) فى ب واستروا حة .

إليه ، كما فعل امرؤُ القيس حين اشتد به البلاء فى قوله : لعل منايانا تحولن أبؤساً .

وهو لا يشك فى أن الذى رجا ممتنع .

ومن أبين ما فى ذلك قول الآخر :

أخــادع نَفْسِى بالأَمَانى تَعَلُّلاً

عَلى العلم مِنِّى أَنَّها لَيْسَ تَنْفــعُ

وأما قوله : فوالله لئِن قدرَ اللهُ عَلَىَّ ليُعذِّبنىِّ عذابا شديداً ، فمعناه فوالله لَئِن ضَيَّق الله علىَّ طُرُقَ الخلاص ليُعذِّبنِّى . وليس يَشُكُّ فى قدرة الله ، ولَوْ شَكَّ فى قُدْرَتِه لكان كافراً . وإنما هو كقوله تعالى : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِر عَلَيهِ »[1] وقوله :

[ومن قُدِر عليه رزقه][2] أى ضُيِّق .

ويجوز أن يكون من القَدَر الذى هو القضاءُ ، فيكون مَعناهُ :

---

(١) الأنبياء : ٨٧ . وهى بتمامها: (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) .

(٢) الطلاق : ٧ . وتمام الآية : (لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً) .

[فوالله لئن قَدَّرَ الله على لَيُعذِّبَنِّى العذابَ] [1] فحذف المفعول اختصارا كما قال النابغة الجَعْدِى :

حتى لَحِقْنَا بهم تُعْدِى فَوَارِسُنَا
كأننا رَعْنُ قُفٍّ يَرْفَعُ الآلا [2]

أراد تُعْدِى فوارِسُنا الخيلَ .

وقد يجوز أن يكون قوله : « فوالله لَئِن قدرَ اللهُ عَلَىَّ من القُدرةِ على الشيء . فإن قيل : كيف يصح هذا . ودخول الشرط عليه قد جعله من حيز الممكن الذى يجوز أن يكون ، ويجوز أن لا يكون ، وهذه خاصة الشرط ؟ ألا ترى أنك إذا قلتَ : إن جاءَنى زيدٌ أكرمته فممكن

---

(١) عبارة ب (فوالله لئن قدر الله على العذاب ليعذبنى) بتقديم العذاب وهى أوضح .

(٢) رواية الأصل لحقناهم ، وما أثبتناه هو الموافق لما فى الديوان . ولما فى : ب ، ط وأمالى القالى . والخصائص . والرعن بفتح الراء أول كل شىء ، والقف بضم القاف ما غلظ من الأرض ، ولم يبلغ أن يكون جبلا . والآل : السراب ، ويريد : يرفعه الآل . ولكنه قلب على عادة العرب ، والأصل تعدى فوارسنا الخيل . فحذف المفعول الذى هو الخيل . والنابغة الجعدى هو عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة شاعر مخضرم نادم النعمان بن المنذر كما نادمه النابغة الذبيانى . وأدرك رسول الله الله صلى الله عليه وسلم . وأنشده شعراً فدعا له .

انظر الديوان ص ١٠٦ الأمالى للقالى ٢ - ٢٨٨ . المحتسب ٢ - ٢٧ . الخصائص ١-١٣٤

أن يقع ذلك ، وممكن ألا يقع . وهذا شك مَحْض في قدرة الله تعالى[1] ؟؟ فالجواب[2] أن العرب قد تستعمل[3] [إنْ] التي للشرط بمعنى إذا كما تَسْتَعْمِل إذا بمعنى إنْ . وإذا[4] تقع على الشيء الذي لا يُشَك في كَوْنه كقولك[5] إذا كانَ الليلُ فأْتني ، وكون الليل لابد[6] منه . وكقوله تعالى : [إذا السماءُ انْفَطرتْ][7]

فمعناه على هذا : فواللهِ إذا قَدَر اللهُ عليَّ لَيُعذِّبَنِّي عذاباً شديداً .

وإنما جاز وقوعُ إنْ التي للشرط موقع إذا الزمانية لأن كل واحدة منهما تحتاج إلى جواب ، والشَّيْئان إذا تَضَارعَا[8] جاز أن يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ،

---

(١) في ط عز وجل .
(٢) في ط والجواب .
(٣) ساقطة في ب .
(٤) لأن إذا تدل على أن شرطها محقق الوقوع . وأما إن فشرطها مشكوك في وقوعه . وقوله لا يشك في كونه أي وجوده .
(٥) في ط كقوله .
(٦) عبارة ب (لا بد له منه) . وكون الليل : أي وقوعه ووجوده :
(٧) الانفطار : ١ .
(٨) تضارعا : تشابها .

فمما وقعت فيه إنْ موقع إذا قوله تعالى : [لَتَدْخُلُنَّ المسْجدَ الحرام إنْ شاءَ اللهُ آمنين][1]

وقول النبي صلى [2] الله عليه وسلم حين وقف على القبور : « وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بكم لاحِقُونَ »[3] يريد إذا شاءَ الله .

ومنه قول الشاعر :

فإنْ لا يكنْ جِسْمى طويلا فإنَّنى
له بالفَعَال الصالحاتِ وَصُولُ[4]

معناه : فإذا لم يكن جسمى طويلا فإننى أُطِيلُه بالأفعال

---

(١) الفتح : ٢٧ . بعض آية أولها :(**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين**) .

(٢) فى ط : عليه السلام .

(٣) رواه مسلم فى باب الجنائز (٣-٦٣،٦٤) ورواه أحمد فى مسنده بلفظ « وإنا بكم لاحقون » ٦-٧١ .

(٤) نسبه فى الحماسة لرجل من الفزاريين ، ورواية الحماسة :

إلا يكن عظمى طويلا فإننى ... له بالخصال الصالحات وصول

وبعده :

ولا خير فى حسن الجسوم ونبلها ... إذا لم تزن حسن الجسوم عقول

(انظر شرح الحماسة للمرزوقى ٣-١١٨١) .

الحسَانِ ولا يصلح[1] الشرطَ ها هنا لأَن قِصَر جسمه شيءُ قد كان ووقع ، فالشرط هنا محال ، ومثله قول الآخر .

فإنْ أَكُ قَدْ فَارقْتُ نَجداً وأَهلَهُ
فما عهـــدُ نجـــد عندنا بذَميم ِ[2]

وأما وقوع إذا بمعنى إنْ فكقول أوس بن حَجَر :—

إذا أَنتَ لم تُعْرِضْ عن الجَهْل والخنا
أَصَبْتَ حليماً أو أَصابَك جاهـلُ[3]

والإعراضُ عن الخنَا ممكن أن يكونَ ، وممكنٌ أن لا يكون ، فليس هذا من مواضع إذا إنما هو من مواضع إن.

وأما ورود المدح فى صورة الذم فكقولهم : أَخْزاه الله ما أَشْعره!!

ولعَنه اللهُ ما أَفْصَحه ، وكقول كعب بن سعد الغنوى :

---

(١) فى ب ، ط : ولا يصح .

(٢) لم نعثر على قائله .

(٣) الخنا : الفحش (انظر الديوان ص ٩٩ بيروت) .

هَوَتْ أُمُّهُ ما يبعثُ الصبحُ غادياً

وماذا يردُّ الليلُ حين يَؤُوبُ[1]

وذكر ابن‌جنّى أَنَّ أَعْرابيًا رأى ثوباً ، فقال ماله محقه الله ؟ قال :

فقلت له : لم تقول هذا ؟ فقال : إنا إذا استحسنا شيئًا دعونا عليه .

وأصل هذا أنهم يكرهون أن يمدحوا الشىء ، فيصيبونه[2] بالعين ، فيعدلون عن مدحه إلى ذمه . وأما ورود الذم فى صورة المدح فكقوله تعالى :

---

(١) هوت أمه : هلكت . وليس المراد الدعاء بالوقوع فى الهلاك ، بل المراد التعجب والمدح كقولهم : قاتله الله ما أفصحه !! أى أنه مستحق لأن يحسد ويدعى عليه بالهلاك . وهذا من مخالفة ظاهر اللفظ معناه . وما استفهامية يقصد منها التعجب والاستعظام . وما بعدها خبر . أى : أى شىء يبعث الصبح منه حين يغدو للحرب وأى شىء يرد الليل منه حين يرجع إلى أهله . يعنى أنه شىء عظيم . وفى البيت تجريد . يعنى أنه كان يغدو فى طلب الغارة ويرجع بالليل ظافراً .

(الأمالى٢ـ١٥٠ . الخزانة ٤ـ٣٧٥ . شرح شواهد الكشاف ٤ـ٧٩٠) :

(٢) فى ط ، ب فيصيبوه . عطفا على يمدحوا .

[إِنَّكَ لأَنْتَ الحلِيمَ الرشيدُ][1] .

وقول الشاعر :

وقُلْتُ لسيِّدنا يا حليمُ   إنَّك لم تَـأْسُ أَسْواً رفيقا[2]

وأما التقليل الوارد بصورة التكثير فنحو قوله[3] : كَمْ بطَلٍ قتلَ زيدٌ ، وكَمْ ضيف نزل عليه !! وأنت تريد أنه لم يقتل بطلاً قط ، ولا قَرَى ضيفا ، ولكنك تقصد الاستهزاء به ، كما تقول للبخيل يا كريم ، وللأحمق يا عاقل .

وأما التكثير الوارد بصورة التقليل فنحو قولك : رُبَّ ثَوب حَسَن قد لبستُ ، ورُبَّ رجل عالم قد لقيت ، فتقابل ما لبستَ من الثياب ، ومن لقيت من العلماء

---

(١) هود : ٨٧ . والآية بتمامها :(**قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد**) وقال الزمخشرى أرادوا بقولهم « إنك لأنت الحليم الرشيد » نسبته إلى غاية السفه والغى فعكسوا ليتهكموا به كما يتهكم بالشحيح الذى لا تبض حجره فيقال له لو أبصرك حاتم لسجد لك . ٢ـ٤٢٠

(٢) لم يعرف قائله . لم تأس من أسا الجرح أسواً وأسا : داواه وأسا بينهم : اصلح . جعله ابن فارس من باب ما يجرى من كلامهم مجرى التهكم والهزء فهم يقولون للرجل يستجهل : يا عاقل (الصاحبى ص ٢١٤) .

(٣) فى ب قولك .

تواضعاً ليكون أجل لك فى النفوس ، لأن الرجل إذا حقر نَفْسَه تواضُعًا ثم اختبر فَوُجد أَعظمَ مما وصف به نفسه عَظُم فى النفوس ، وإذا تَعاظَمَ ، وأَنْزل نفسَه فوق منزلتها ثم اختبر فوجد أقل مما قال . استُخِفَّ به ، وهان على كل من كان يُعَظِّمُه .

وقد يستعمل تقليل الشيء – وهو كثير فى الحقيقة – لضروب من الأغراض والمقاصد ، كالرجل يهدد صاحبه فيقول له : لا تعادنى[1] فربما ندمت . وهذا مكان ينبغى أن تكثرَ فيه الندامةُ ، وليس بموضع تقليل ، وإنما تأْويله أَن الندامة على هذا لو كانت قليلة لوجب أَن يُتَجَنَّب ما يؤدى إليها ، فكيف وهى كثيرة ؟ فصار فيه من معنى المبالغة ما ليس فى التكثير لو وقع ها هنا .

ومن هذا قوله تعالى [2] : [رُبَما يَوَدُّ الذين كَفرُوا لو كانوا مسلمين] [3] .

---

(١) فى ط لا تعاندنى .

(٢) الحجر : ٢ .

(٣) قال الزمخشرى فى تفسير الآية . فإن قلت فما معنى التقليل ؟ قلت هو وارد على مذهب العرب فى قولهم لعلك ستندم على فعلك ، وربما ندم الإنسان على ما فعل . ولا يشكون فى تندمه ، ولا يقصدون تقليله ، ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكاً فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل

وإنما تأتى رب بمعنى التكثير فى مواطن الافتخار ؛ والوجه فى ذلك أن المفتخر يريد : أن الأمر الذى يقل وجوده من غيره يكثر وجوده منه فيستعير لفظ التقليل فى موضع التكثير إشارة إلى هذا المعنى ، وليكون أبلغ [فى[1]] الافتخار .

وقد توهم قوم[2] أن رب للتكثير حين خفى عليهم ما ذكرناه من تداخل المعانى ، وهذه غفلة شديدة

هذا الفعل لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون. كما يتحررون من المتيقن ، ومن القليل منه كما من الكثير ، وكذلك المعنى فى الآية : لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة فبالحرى أن يسارعوا إليه ، فكيف وهم يودونه فى كل ساعة ؟ . الكشاف ٥٩٦ .

(١) ساقطة فى ب .

(٢) يرى العلامة ابن السيد أن رب موضوعة للتقليل . ولا تكون للتكثير إلا تجوزا . وهذا رأى أكثر النحاة وهو مخالف لرأى سيبويه ، لأن ظاهر مذهب سيبويه العكس أى أنها للتكثير كثيراً ، لأنه جعل معناها كمعنى كم الخبرية . فيقول فى ١-٢٩١ عن كم . ومعناها معنى رب ، وفى ١-٢٩٣ قال : واعلم أى كم فى الخبر لا تعمل إلا فيما تعمل فيه رب لأن المعنى واحد . ويقول ابن هشام فى المغنى ١-١٣٤ وليس معناها التقليل دائماً خلافاً للأكثرين ، ولا التكثير دائماً خلافاً لابن درستويه وجماعة . بل ترد للتكثير كثيراً وللتقليل قليلا فمن الأول . ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وفى الحديث يا رب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة . ومن الثانى قول الشاعر :

ألا رب مولود وليس له أب وذى ولد لم يلده أبوان

لأنا نجد المدح قد يخرج مخرج الذم ، والذم يخرج مخرج المدح ، ولا يخرجهما ذلك عن موضوعهما الذى وضعا عليه فى أصل وضعهما ، كما أن الاسم العَلَم الذى وضع فى أصل وضعه للخصوص قد يعرض له العموم ، والنكرة التى وضعت فى أصل وضعها للعموم قد يعرض لها الخصوص ، ولا يُبطِلُ ذلك وضعَهما الذى وضعا عليه أوّلا ، وإنما ذلك لكثرة المعانى وتداخلها ، واختلاف الأغراض وتباينها ، فمتى وجدت شيئا قد خالف أصله ، فإنما ذلك لسبب وغرض ، فيجب [للك] (١) أن تبحث عنه ولا تتسرع إلى [نقض] (٢) الأُصول دون تثبت وتأمل .

فمن مشكل هذا الباب قول أبى كبير الهذلىّ :

أزهيرَ إن يَشِبْ القَذالُ فإننى
رُبَ هيضل مَرِس لَفَفْتُ بهيضلِ (٣)

---

(١) هكذا فى جميع الأصول .

(٢) فى ط بعض وهو تصحيف .

(٣) ويروى هيضل لجب ، والهيضل : الجماعة المتسلحة . ومرس ذو مراس وشدة . واللجب المرتفع الصوت . وهو يخاطب امرأة اسمها زهيرة ، يقال : إنها ابنته .

وأبو كبير أحد فطاحل شعراء الهذليين واسمه عامر بن الحليس من هذيل (أشعار الهذليين ٣-١٠٧٠) .

ورُبَ[1] هنا مخففة من رُبَّ .

وقولُ أَبي عطاءٍ السِّنْدِيّ :

فإن تُمسِ مهجورَ الفِناءِ فَرُبَمَا
أقامَ به بعد الوفـودِ وُفُـودُ[2]

والمراد بهذين البيتين التكثير ، ولكن خرجَا مخرجَ التقليل ليكون أمدح ، والمعنى أن هذا لو كان قليلا لكان فيه فخرٌ لصاحبه ، فما ظنك به وهو كثيرٌ .

ويحتمل قَولُ أَبي عطاءٍ السِّندى أن يكون أراد تقليل مدة حياة المرثى التي كثُرت عليه فيها الوفود . فَعلى نحو هذه التـأويلات يُتَـأَولُ ما وردَ مخالفا للأُصول . وملاك هذا الباب معرفة الحقيقة والمجاز ، وهو باب يَدِق على من لم يتمهر في هذه الصناعة ، فلذلك يُنكِر كثيراً

---

(١) في ط هنا زيادة (زهيرِ ههنا ترخيم زهيرة وهى ابنته فلذلك فتح الراء) .

(٢) هذا البيت من قصيدة يرثى بها يزيد بن عمر بن هبيرة لمـا قتله المنصور بواسط سنة ١٣٢ هـ . والمراد بالوفود : طلاب الحاجات .

وأبو عطاء هو أفلح بن يسار السندى مولى بنى أسد . وهو شاعر مخضرم عاصر الدولتين الأموية والعباسية وكان متشيعا لبنى أمية . توفى أيام المنصور . (الأغانى ١٦-٧٨ . شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٢-٨٠٠ الخزانة ٤-١٦٧ . وفيات الأعيان ٢-٣٦٩) .

مما هُوَ صحيح ، ولله در أبى الطيب حيث يقول :

وكم من عائب قولا صحيحا　　وآفته من الفهم السقيم[1]
ولكن تأخذ الآذان منه　　على قدر القرائحِ والعلوم

ومن طريف[2] المجاز العارض من طريق التركيب إيقاعهم أدوات المعانى على السَّببِ[3] ، ومرادهم المُسَبَّب تارة ، وتارة يوقعونها على المَسَبَّب ومرادهم السبب ، وإنما يفعلون هذا لتعلق أحدهما بالآخر .

فمثال الأول قوله تعالى : [فلا تَموتُنَّ إلَّا وأنتم مسلمون][4] .

فأوقع النهى على الموت فى اللفظ ، والموت ليس بفعل لهم فيصح نَهيُهُمْ عنه ، وإنما نهاهم عن مفارقة الإسلام ، فمعناه لا تفارقوا الإسلام حتى تموتوا عليه . فأوقع النهى على الموت لأنه السبب الذى من أجل تَوَقعِه وخَوْفِه يلزم الإنسان أن يستعد لوروده ، ويتأهب له بصالح عمله .

---

(١) انظر شرح العكبرى لديوان المتنبى (٤-١٢٠)

(٢) فى ط : ومن ظريف بالظاء . وهو تصحيف .

(٣) يقصد من أدوات المعانى حروف المعانى مثل حروف النفى والنهى .

(٤) الآية وردت فى الأصل (فلا تموتن) فهى من سورة البقرة : جزء من آية ١٣٣ . وفى ب و ط (ولا تموتن) بالواو فهى من سورة آل عمران جزء من آية ١٠٢ .

والثانى مثل قوله تعالى : [فما تَنفعُهم شفاعةُ الشَّافِعِين][1] .

وليس المراد إثبات شفاعة غير نافعة ، لأَنه لا شفاعة هناك فى الحقيقة بدليل قوله تعالى : [فما لَنا مِنْ شافِعِين ولَا صَديق حَمِيم][2] .

فأَوقع النفى على المنفعة التى هى المسَبَّب ، ومراده تعالى الشفاعة التى هى السَّببُ ، فكأَنه قال : ما تكون شفاعة ، فتكون مَنْفعةٌ .

ونحوه قولك : ما نفعنى كلام زيد . فهذا كلام يحتمل معنيين :

أَحدهما : أَن تريد إثبات الكلام ونفى المنفعة وحدها .

والثانى : أَن تريد نفيهما معاً أَى لم يكن منه كلام ، فَتكُنْ منهُ منفعةٌ .

ومثله قول امرئ القيس :

---

(١) المدثر : ٤٨ .

(٢) الشعراء : ١٠٠ ، ١٠١ .

عَلَى لا حب لا يُهتَدَى بمنَارِه[1]

ولم يرد إثبات المنار ، ونفى الهداية ، ولو كان ثم منارٌ لكانت ثم هداية ، وإنما المعنى ليس به مَنارٌ فتكون هِداية .

ومن هذا قول العرب : لا أَرَينَّك ها هُنَا أى لا تكون[2] ها هنا فإنى أراك ، فالمراد بالنهى الكون[3] لا الرؤيةُ .

ونحوُه قَوْلُ النابغة :

لا أعرفن ربربا حوراً مدامعها
كأَن أَبكارَها نِعاجُ دوَّارِ[4]

فعلى هذا مجرى الباب .

(١) هذا صدر بيت عجزه : إذا سافه العود النباطى جرجرا :
واللاحب : الطريق البين الذى لحبته الحوافر أى أثرت فيه ، وقد يستعمل فى الطريق مطلقا .
النباطى : منسوب إلى النبط وهو أشد الأبل وأصبرها — سافه العود : أى إذا شمه المسن من الإبل القوى صوت ورغا لبعده ، وما يلقى فيه من مشقة (الديوان ص ٦٦) .
(٢) فى ب ، ط : لا نكونَن .
(٣) الكون : يعنى الوجود .
(٤) الربرب : القطيع من بقر الوحش شبه به جماعة النسوة — المدامع : العيون جمع مدمع — وحور جمع حوراء من الحور وهو شدة بياض العين مع شدة سوادها . والدوار : ما استدار من الرمل . ونعاج الرمل : البقر . ولا يقال لغير بقر الوحش . أى لا تعرضوا نساءكم للسبى .
انظر الديوان ص ٨٥ . بيروت .

الباب الثالث

في الخلاف العارض من جهة الإفراد والتركيب

هذا باب طريف[1] جداً ، وقد تولدت منه بين الناس أنواع كثيرة من الخلاف وهو باب يحتاج إلى تأمل شديد ، وحِذْق بوجوه القياس ، ومعرفة [تركيب][2] الألفاظ ، وبناء بعضها على بعض ، وذلك أنك تجد الآية الواحدة ربما استوفت الغرض المقصود بها من التعبد فلم تُحوِجْك إلى غيرها كقوله تعالى : [يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُم][3] و ـ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا آمنُوا بالله ورسوله[4]] و ـ قوله تعالى : [أطيعوا الله وأطيعوا الرسول][5] .

فإن كل واحدة من هذه الآيات قائمة بنفسها ، مستوفية للغرض المراد منها [فكذلك][6] الأحاديث الواردة كقوله عليه السلام :

---

(١) في ط ظريف وهو تصحيف .
(٢) ساقطة من ط .
(٣) النســاء : ١ .
(٤) النســاء : ١٣٦ .
(٥) النســاء : ٥٩ .
(٦) في ب ، ط : وكذلك .

« الزَّعيمُ غارمٌ ، والبينة على المدَّعِي واليمينُ على المدَّعَى عليه »[1] .

ورُبما وردت الآية غير مستوفية للغرض المراد من التعبد ، وورد تمام الغرض فى آية أخرى . وكذلك الحديث . كقوله عز وجل :

[من كانَ يُريدُ حَرثَ الآخرةِ نَزِدْ له فى حَرثِه ، وَمَنْ كانَ يُريدُ حرثَ الدنيا نؤتِه منها ، ومالَهُ فى الآخرةِ مَن نَصِيبٍ][2] .

فظاهر هذه الآية أن من أراد حرث الدنيا أُوتِى منها ، ونحن نشاهد كثيراً من الناس يحرصون على الدنيا ولا يُؤْتونَ شيئًا منها . فهذا كلام محتاج إلى بيان وإيضاح .

ثم قال فى آية أُخرى :

---

(١) ورد فى مسند أحمد ٥-٢٦٧ (العارية مؤداة ، والمنحة مردودة ، والدين مقضى ، والزعيم غارم) . وفى ٥-٢٩٣ عن أبى أمامة (الزعيم غارم) أما قوله : والبينة على المدعى . واليمين على المدعى عليه . فى حديث آخر رواه البخارى فى باب الرهن ٣-١٨٧ . والترمذى فى الأحكام . ورواه ابن ماجة فى الأحكام عن ابن عباس بلفظ : (لو يعطى الناس بدعواهم لادعى أناس دماء رجال وأموالهم . ولكن البينة على المدعى واليمين على المدعى عليه)

(٢) الشورى : ٢٠ .

[مَنْ كانَ يُريدُ العاجِلَةَ عَجَّلْنا له فيها ما نشاءُ لمن نُريدُ] (1) .

فإذا أُضيفت هذه الآية إلى الآية الأُولى بَان مرادُ الله تعالى ، وارتفع الإشكال .

وكذلك قوله تعالى : [وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريبٌ أُجِيبُ دعوة الداع إذا دعان] (2) .

ثم قال فى آية أُخرى : [بَلْ إيّاه تَدْعُونَ ، فيكشفُ ما تَدْعُون إليه إن شَاءَ] (3) .

فدل اشتراط المشيئة فى هذه الآية الثانية على أنه مراد فى الآية الأُولى . وربما وردت الآية مجملةً ثم يفسرها الحديث ، كالآيات الواردة مجملة فى الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ثم شرحت السنة والآثار جميع ذلك .

وكقوله تعالى : [واللّاتِي يَأْتِينَ الفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكمْ فاسْتَشْهِدُوا عليهن أَربعةً منكم (4) ، فإن شَهدُوا

---

(1) الإسراء : 18 .

(2) البقرة : 186 .

(3) الأنعام : 41 .

(4) فى الأصل منكن وهو تحريف .

فأَمْسِكُوهنَّ فى البيوت حتّى يَتَوفّاهُنَّ الموتُ ، أَو يجعلَ الله لَهُنَّ سَبيلاً][1] .

ثم قال صلى الله عليه وسلم « خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلاً : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم »[2] .

ولأَجل هذا صار الفقيه مضطرا فى استعمال القياس إلى الجمع بين الآيات المفترقة ، والأَحاديث المتغايرة ، وبناء بعضها على بعض

ووجه الخلاف العارض من هذا الموضع أَنه ربما أَخذ بعض الفقهاء بمفرد الآية وبمفرد الحديث ، وبنى آخَرُ قياسه على جهة التركيب الذى ذكرناه بأَن يأْخذ بمجموع آيتين أَو بمجموع حديثين ، أَو بمجموع آيات ، أَو بمجموع أَحاديث ، فتفضى بهما الحال إلى

---

(١) النساء : ١٥ .

(٢) هذا حديث مشهور . رواه مسلم فى صحيحه (٢-٣٣) ورواه أحمد فى مسنده (٥-٣٢٠) . (انظر تفسير ابن جرير ٨-٧٨) .

الاختلاف فيما ينتجانه ، وربما أفضت بهما الحال إلى التناقض ، فأحل أحدهما ما يحرمه الآخر . وربما أفضى بهما الأمر إلى اختلاف العقائد فقط ، وربما أفضى بهما إلى الاختلاف فى الأسباب فقط ، كاختلافهم فى سبب تحريم الخمر . فإن قوما يستدلون على وجوب تحريمها بمجرد قوله عز وجل[1] :

[«وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

وقوم يستدلون على وجوب تحريمها لمجرد قوله][2] :

يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان إلى قوله : فهل أنتم مُنْتَهون][3] .

وقوم يرون ذلك بطريق التركيب ، وبناء الألفاظ بعضها على بعض وذلك أنه لما قال تبارك وتعالى :

---

(١) الحشر : ٧ :

(٢) ما بين القوسين فى ب ساقط من الأصل .

(٣) المائدة : ٩٠ ، ٩١ . والآيتان: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) .

[يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس][1] . ثم قال فى آية أُخْرَى :

[قل إنَّما حرَّمَ ربِّىَ الفَواحِشَ ما ظَهرَ مِنْها وما بَطَن والإثمَ][2] .

تركب من مجموع الآيتين قياسٌ أنتج تحريمَ الخمرِ ، وهو أن يقال : كل اثم حرام ، والخمر إثم ، فالخمر إذًا حرام .

ومثل هذا قوله تعالى فيما حكاه عن قوم لوط [أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين][3] .ثم قال فى هذه الآية التى ذكرناها :

[قل إنما حرَّم ربىَ الفواحِشَ ما ظهرَ منها وما بَطَن] .

فرَكَّبَ من مجموع الآيتين قياسٌ وهو : كل فاحشة حرام ، وفعل قوم لوط فاحشة ، ففِعْلُ قَوْم لُوْط إذًا حرام .

فعلى مثل هذا أنتجت النتائج ، ورُكِّبت القياساتُ ،

---

(١) البقرة : ٢١٩

(٢) الأعراف : ٣٣ .

(٣) الأعراف : ٨٠ .

ووقع بين أصحاب القياس الخلاف بحسب تقدم [القائس][1] أو بحسب تأخره .

وخالفهم قوم آخرون لم يروا القياس ، ورأوا الأخذ بظاهر الألفاظ ، فنشأ من ذلك نوع آخر من الخلاف .

ومما اختلفت[2] فيه أقوال الفقهاء لأخذ كل واحد منهم بحديث مفرد اتصل به [ولم يتصل به][3] سواه ، ما رُوى عن عبد الوارث بن سعيد أنه قال : قدمت مكة فألفيت فيها أبا حنيفة [وابن[4] أبي لَيْلى[5] وابن شُبْرُمَةَ ، فأتيت أبا حنيفة] ، فقلت ما تقول فى رجل باع بيعًا وشَرط شَرْطًا ؟؟ فقال : البيع باطل والشرط باطل .

---

(١) فى ط : القياس وهو تحريف .

(٢) فى ط اختلف .

(٣) هكذا فى ب ، ط وفى أ أو لم يتصل به .

(٤) ما بين القوسين ساقط من ط .

(٥) ابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمن الأنصارى الكوفى فقيه من أصحاب الرأى ولى القضاء والحكم بالكوفة لبنى أمية ثم لبنى العباس ومات بالكوفة سنة ١٤٨ هـ .

وفيات الأعيان ١-٤٥٢ ، تهذيب التهذيب ٩-٣٠١ وابن شبرمة هو القاضى عبد الله بن شبرمة بن حسان روى عن أنس وأبى الطفيل وعبدالله بن شداد، كان فقيها ثقة فى الحديث. ولى قضاء البصرة وهو كاره . توفى سنة ١٤٤ هـ ؛ تهذيب التهذيب ٥-٢٥٠ . العقد الفريد ٢-٣٦٥ .

فأتيت ابن أبي ليلى ، فسألته عن ذلك ، فقال : البيع جائز ، والشرط باطل ، فأتيت ابن شُبْرُمة ، فسألته عن ذلك فقال : البيع جائز ، والشرط جائز . فقلت فى نفسى : يا سبحان الله[1] !! ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون على مسألة !! فعدت إلى أبي حنيفة ، فأخبرته بما قال صاحباه ، فقال : ما أدرى ما قالا لك ؟ حدثنى عمرُو بن شُعَيب عن أبيه عن جده . قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع وشرط ، فالبيع باطل ، والشرط باطل[2] .

فعدت إلى ابن أبي ليلى فأخبرته بما قال صاحباه ، فقال : ما أدرى ما قالا لك ؟ . حدثنى هشام بن عُرْوَةَ عن أبيه عن عائشة قالت أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اشترىَ بَرِيَرةً ، فأُعْتِقها البيع جائز ، والشرط باطل[3] .

قال : فعدت إلى ابن شُبْرُمَة فأخبرته بما قال صاحباه ،

---

(١) فى ط « سبحان الله » دون يا .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط . وفى سبل السلام كتاب البيوع ٢-٢٩٦

(٣) حديث بريرة . رواه البخارى فى كتاب البيوع (٣-٧١ - ٣-٦٤) باب إذا اشترط شروطاً . ومسلم (كتاب المكاتب ٣-١٣٢) .

فقال ما أدرى ما قالا لكن حدثنى مِسْعَر بنُ كِدَام عن محارب بن دِثَار عن جابر . قال : بعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعيرا ، وشرط لى حُملانَهُ إلى المدينة . البيع جائز والشرط جائز[1] .

وقد ترد الآية والحديث بلفظ مشترك يحتمل تأويلات كثيرة ، ثم ترد[2] آية أخرى [و][3] حديث آخر بتخصيص ذلك اللفظ المشترك ، وقصره[4] على بعض تلك المعانى دون بعض كقوله عز وجل[5] : «ووجدك ضَالاً فهدى»[6] .

فإن لفظة الضلال لما كانت مشتركة تقع على معان كثيرة توهم قومٌ ممن لم يكن لهم فهم صحيح بالقرآن ، ولا معرفة ثاقبة باللسان ، أنه أراد الضلال الذى هو

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣-٢٩٩) بلفظ بعته واشترطت حملانه إلى أهلى .

(٢) هكذا فى ب وفى أ ثم تراد .

(٣) فى ب ، ط (أو)

(٤) فى ط (وقصده) بالدال وهو تحريف .

(٥) فى ط : وتعالى .

(٦) الضحى : ٧ .

ضد الهدى ، فزعموا أنه كان على مذهب[1] قومه أربعين سنة .وهذا خطأ فاحش نعوذ بالله من اعتقاده فيمن طهره الله[2] لنبوته ، وارتضاه لرسالته ، ولو لم يكن فى القرآن العزيز ما يردُّ قولَهم لكان فيما ورد من الأخبار المتواترة ما يرد عليهم . ذلك لأنه قد روى أنهم كانوا يسمونه فى الجاهلية الأمين ، وكانوا يرتضُونه حكَمًا عليهم ، ولهم[3] . وكانت عندهم أخبار كثيرة يروونها وإنذرات من أهل الكتاب والكهان بأنه[4] يكون نبيا .

ولولا أن كتابنا هذا ليس موضوعا لها لاقتصصناها ، فكيف والقرآن العزيز قد كفانا هذا كله ، فقوله[5] عز من قائل فى سورة يوسف : [نحنُ نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هَذَا القرآن وإنْ كنت من قبله لمن الغافلين][6] .

(١) فى ط « دين » .

(٢) فى ط زيادة « تعالى » .

(٣) فى ب ، ط حكما لهم وعليهم .

(٤) فى ط : بأن .

(٥) فى ب يقول الله عز وجل .

(٦) يوسف : ٣ .

فهذا نص جَلِيٌّ [قد][1] شرح ما وقع فى تلك الآية من الإبهام وبين أنه إنما أراد الضلال الذى هو الغفلة كما قال فى موضع[2] آخر : [لا يَضِلُّ ربِّى ولا يَنْسَى][3] أى لا يغفل .

وقال: [أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأُخرى][4] أى تغفل وتنسى .

وقالت الصوفية معناه : ووجدك محبا فى الهدى فهداك ، فتأولوا[5] الضلال ههنا[6] بمعنى المحبة . وهذا قول حسن جداً . وله شَاهد من القرآن واللغة ، أما شَاهده من القرآن فما حكاه الله تعالى من قول إخوة يوسف لأَبيهم : [تالله إنك لفى ضلالك القديم][7] .

---

(١) فى ط : (فى) بدل (قد)

(٢) فى ط مواضع أخرى .

(٣) طه . آية ٥٢ . والآية بتمامها : (قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) .

(٤) البقرة : ٢٨٢ .

(٥) فى ب : فأولوا .

(٦) فى ط : هنا .

(٧) يوسف : ٥٩ . (قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم) .

إنما أرادوا بالضلال ههنا[1] إفراط محبته فى يوسف صلى الله عليه وعلى جميعهم[2] .

وأما شاهده من اللغة فإنه جائز فى مذاهب العرب أن تسمى المحبة ضلالا ، لأن إفراط المحبة تُشْغِلُ[3] المحب عن كل غرض وتحمله على النسيان والإغفال لكل واجب مفترض ، ولذلك قيل : الهوى يُعمى ويُصم . فسميت المحبة ضلالا إذ كانت سبب[4] الضلال على مذاهبهم فى تسمية الشيء باسم الشئ إذا[5] كان منه بسبب[6] .

ومن هذا الباب قوله تعالى فى سورة نوح عليه السلام : [أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغْفِرْ لكم من ذنوبكم ويؤخرْكُمْ إلى أجل مسمى][7] .

---

(١) فى ط : هنا .

(٢) فى ط : عليهم أجمعين .

(٣) فى ط « يشغل » و « يحمله » بالياء :

(٤) فى ط : تسبب .

(٥) فى الأصل : إذ .

(٦) وهذا يسميه علماء البيان مجاز مرسلا .

(٧) نوح : ٣ ، ٤ . وتتمة الآية الرابعة : (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) .

والأَجل قد علمنا أَنه لا تأْخير فيه ، وقد بين ذلك بقوله تعالى فى عقب الآية : « إن أَجل الله إذا جاءَ لا يؤخر » وقال فى موضع آخر [فإذا جاءَ أَجلهم لا يستأْخرون ساعة ولا يستقدمون][1] . فوجب أَن يُنظَر فى معنى هذا التأْخير ما هو ؟ .

ثم وجدنا هذه الآية المبهمة المجملة قد شرحتها آية واضحة مفصلة كفتنا التأْويل ، ولم تحوجنا إلى طلب الدليل ، وهو[2] قوله تعالى فى أَول سورة هود عليه السلام [وَأَنِ اسْتَغْفِروا رَبَّكُم ثم تُوبُوا إِلَيه يُمَتِّعكم متاعاً حسنا إلى أَجل مسمّى][3]

فدلت هذه الآية على أَنه إنما أَراد بتأْخير الأَجل التمتيع الحسن ، لأَن التمتيع الحسن يجتمع فيه الغنى والسلامة من الآفات والعز والذكر الحسن . والعرب تسمى هذه الأَشياء كلَّها زيادة فى العمر ، وتسمى أَضدادها وخلافها نقصانا من العمر[4] .

---

(١) النحل : ٦١ . والآية : (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

(٢) فى ط : وهى .

(٣) هود : آية ٣ .

(٤) إنظر ٢-٣٧٨ من تفسير الكشاف .

وقد جاء فى بعض الحديث أن موسى عليه السلام شكا إلى الله تعالى بعدو له . فأوحى الله إليه : إنى سأُميته . فلما كان بعد مُدَّة[1] رآه فقيراً ينسج الحصر ، فقال يا رب : ألم تعدنى أن تميتَه ؟ فقال أو ليس قد أفقرتُه؟

وقد تعين علينا فى هذا الموضع أن نذكر على كم معنى تتصرف الحياة والموت فى اللسان العربى ليتبين ما ذكرناه بشواهده حتى لا يبقى فيه لطاعن مطعن بحول الله تعالى .

اعلم أن الحياة والموت لفظتان مشتركتان تستعملان فى اللغة العربية على ثلاثة عشر وجها :ـ

أحدها : الوجود والعدم والثانى مقارنة[2] النفس الحيوانية للأجسام ومفارقتها إياها . والثالث : العز والذل . والرابع : الغنى والفقر . والخامس : الهدى والضلال . والسادس : العلم والجهل . والسابع : الحركة والسكون . والثامن : الخصب والجدب . والتاسع :

---

(١) فى ط : زمن .

(٢) هكذا فى ب وفى الأصل غير واضحة وفى ط . (مغارقة) وهو تحريف إذ يفسد المعنى المقصود

اليقظة والنوم . والعاشر : اشعال النار وخمودها . والحادى عشر : المحبة والبغضاء . والثانى عشر : الرطوبة واليبس . والثالث عشر : الرجاء والخوف .

ونحن نورد على كل وجه من هذه الوجوه أمثلةً تشهد بصحة ما قلناه إن شاء الله تعالى .

أما الحياة والموت المراد بهما مقارنة[1] النفوس للأجسام ومفارقتها[2] إياها فَشُهْرَتُهما تغنى عن إيراد مثال لهما.

وأما الوجود والعدم فكقولهم للشمس ما دامت موجودة حية . فإذا عدمت سموها : ميتة . قال ذو الرمة :

فلما رَأَيْن الليل والشمْس حية
حياة الذى يقضِي حُشَاشَةَ نَازِع[3]

شبه الشمس عند غروبها بالحى الذى يجود بنفسه عند الموت وهو من التشبيه البديع . وقال آخر :

---

(١) فى ط : مفارقة . وهو خطأ

(٢) فى ط : ومفارقتهما . وهو تحريف .

(٣) الحشاشة : بقية النفس . يريد أن يقول : بقى من الشمس مثل ما بقى من الذى ينزع أى يحتضر :

شرح الديوان ٢-٨٠٢ .

إذا شئت أدَّانِى صَرُومٌ مُشَيَّعٌ
مَعِى وعَقَامٌ تتقِى الفحلَ مُقْلِتُ

يطوف بها من جانبيها وَيتَّقِى
بها الشمسَ حَىٌّ فى الأَكارعِ مَيِّتُ[1]

يريد ظلَّها فى نصف النهار . أراد أنه موجود فى الأَكارع معدوم من سائر الجسم .

وأما العز والذل ، والغنى والفقر فنحو ما قدمناه من حديث موسى صلى الله عليه وسلم ونحو ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله : (من سره النَّسَأُ فى الأَجل والسَّعةُ فى الرزق فليصل رحمه)[2]. ومنه قول الشاعر :

---

(١) الصروم : الناقة التى لا ترد النضح حتى يخلو لها فتنصرم عن الإبل . مشيع : هى التى يتبعها غيرها . وناقة عقام : بازل شديد . والمقلت هى التى تلد واحداً ثم لا تلد غيره بعد ذلك . وذلك كله كناية عن شدتها . والأكارع جمع أكرع وأكرع مفرده كراع . فهو جمع الجمع ، والكراع ما دون الكعب فى ذات الحوافر وغيرها .

(٢) رواية البخارى فى باب الأدب عن أنس بن مالك (من أحب أن يبسط له فى رزقه ، وينسأله فى أثره فليصل رحمه) ، وكذلك رواه مسلم فى باب البر عن أبى هريرة (بلفظ من سره بدل من أحب) وكذلك رواه البخارى فى كتاب البيوع ٢-٥٦ .

ليس مَنْ ماتَ فَاسْتَراحَ بِمَيْتٍ
إنمـا الميْتُ مَيِّتُ الأَحيـــاءِ

إنمـا الميْت من يعيش كئيبـا
كاسفا باله قليـل الرجاءِ(١)

وقال آخـر :

فأَثْنُـوا علينـا لا أَبا لأَبيـكم
بأَفعالنـا إنَّ الثناءَ هو الخُلْـد(٢)

وقال آخر :

وكان أَبو عمرو معارا حياته بعمرو
فلما مات مات أَبو عمرو

يقول : كان ابنه عمرو يُحِيِي ذِكْره فكأَنَّه حَيٌّ .
فلما مات انقطع ذكره فكأنه إنما مات حينئذ .

وأَما ما يراد به الهدى والضلال ، والعلم والجهل ،

---

(١) قائل هذا الشعر عدى بن الرعلاء الغسانى . والرعلاء أمه اشتهر بها ، وهو شاعر جاهلى .

راجع (خزانة الأدب ٤-١٨٧ . أمالى الشجرى ١-١٥٢ . المنصف لابن جنى ٢-١٧) .

(٢) هذا البيت للحادرة قطب بن أوس بن محصن بن جرول من قيس عيلان وهو شاعر جاهلى مقل . والبيت من قصيدة يفخر فيها بيوم كفافة بين قومه بنى ثعلبة وبين تميم .

(انظر الأبيات فى الأغانى ٣-٢٧٠ — ٢٧٥) .

فكقوله تعالى[1] [يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحيِيكُم)[2] ، وقوله عز وجل[3] : [أَوَمَنْ كانَ مَيْتًا فأَحْيَيْنَاه][4] .

المعنى : أو من كان ضالا فهديناه ، وجاهلا فعلمناه . وتقول العربُ للذكى النبيه : حى ، وللبليد الغبى : ميت .

وقال لقمان لابنه : يا بنى : جالس العلماء وازحمهم بركبتَيك ، فإن الله يحيي القلب الميت بالكلمة من الحكمة يسمعها كما يحيي الأَرض بالمطر .

---

(١) الأنفال : ٢٤ .

(٢) قال الزمخشرى : إذا دعاكم لما يحييكم من علوم الديانة والشرائع، لأن العلم حياة كما أن الجهل موت ، ولبعضهم :

لا تعجبن الجهول حلته   فذاك ميت وثوبه كفن

راجع الكشاف جـ٢ ص ٢١٠ .

(٣) الأنعام : ١٢٢ . والآية بتمامها : (أو من كان ميتاً فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشي به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها . كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) .

(٤) قال الزمخشرى : مثل الذى هداه الله بعد الضلالة ، ومنحه التوفيق لليقين الذى يميز به المحق والمبطل ، والمهتدى والضال ، بمن كان ميتا: فأحياه الله ، وجعل له نوراً يمشي به فى الناس (٢-٦٢ من الكشاف) .

وأما الحياة والموت المراد بهما الحركة والسكون فنحو قول الراجز :

قد كنت أرجو أن تموت[1] الريح
فأرقـــد اليـــوم وأستريح

فجعل هبوب الريح حياةً وسكونها موتا . وقال المجنون[2] :

يموتُ الهوى منى إذا ما لقيتُها
ويحيا إذا فارقتهـا فيعـود

وقال آخر :

ومجلودَةٍ بالسوط فيه حَيَاتُها
فإن زال عنها الجَلدُ بالسوطِ ماتت

يعنى الدُّوَّامَة[3] .

(١) فى ط : يموت باليـاء .

(٢) من هو المجنون الذى يعنيه المؤلف ؟ لقد لقب بالمجنون كثير من الشعراء واشتهر بهذا اللقب قيس بن الملوح صاحب ليلى العامرية . والظاهر أنه لا يقصده لأن البيت ليس له وإنما منسوب إلى جميل بن عبد الله بن معمر الشاعر العذرى صاحب بثينة وموجود فى ديوانه فلعل المؤلف يعنيه بلقب المجنون لأنه أحب بثينة وهام بها وكان يقيمان فى وادى القرى بالحجاز . وتوفى بمصر فى أواخر القرن الأول الهجرى .
الديوان ٦٧٠ ببروت . خزانة الأدب ٢-١٧٠ . الأمالى ٣-٤٧ .

(٣) الدوامة كرمانة التى يلعب بها الصبيان فتدار .
(انظر القاموس المحيط) .

وأما ما يراد به الخصب والجدب ، فإن العرب تقول : أتيت الأرض فأحييتها إذا وجدتها مخصبة . ويقال أرض حية بالهاء ، وأرض ميت بغير هاء[1]. قال الله تعالى : [وأَحْيَيْنَا به بلْدةً مَيْتا][2] .

وقال آخر :

أقبل سيلٌ جاءَ من أمر الله
يَحْرِدُ حَرْدَ الحَيَّةِ المغِلَّهْ[3]

قال بعض أصحاب المعانى : أراد بالحية : الأرض المخصبة ، والمغلة ذات الغَلة ، ويشهد لهذا التأويل رواية من روى : الجَنَّة بالجيم والنون

وقال آخرون : إنما أراد الحية نفسها ، والمغلة ذات

---

(١) فى ط · ويقال أرض حية أى بالماء . وأرض ميتة أى بغير ماء وهو تحريف .

(٢) سورة ق : ١١ . والآية بتمامها : (رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج) .

وفى ا ، ب ، ط فأحيينا بالفاء . وهو مخالف لما فى المصحف الشريف:

(٣) رواية اللسان :

وجاء سيل كان من أمر الله يحرد حرد الجنة المغلة

يحرد : يقصد . والرواية بحذف ألف الله وتسكين آخره ، وترقيق لامه .

(أمالى الشجرى جـ ٢ ص ١٦ . اللسان (حرد) .

ذات الغل والحقد ، وشبه تلوى السيل وانعطافه بتلوى الحية وانعطافها إذا مشت .

وهذا قول ابن الرومى[1] :

بين جِقَافَىْ جَـدْولٍ مَسْجُورِ
كالسَّيْفِ أوْ كالحية المذعـورِ

وأما اليقظة والنوم فكقول الله عز وجل : [الله يتوفى الأَنفسَ حِيْنَ موتها والتى لم تمت فى منامها][2] .

فسمى النوم وفاة .

وسأل رجل ابن سيرين[3] عن رجل غاب عن مجلسه .. فقال له : أما علمت أنه توفى البارحة ؟ فلما رأى جزع السائل قرأ : [الله يتوفى الأَنفس حين موتها] .
وقال الشاعر :

---

(١) فى ط : ذو الرمة وهو تحريف . ومسجور : مملوء . وابن الرومى هو على بن العباس بن جريج . مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر عاش فى عصر الدولة العباسية توفى سنة ٢٨٣ ﻫ وقد اشتهر بالهجاء .

(٢) الزمر : آية ٤٢ .

(٣) ابن سيرين هو محمد بن سيرين البصرى الأنصارى تابعى ولد وتوفى بالبصرة. واشتهر بتعبير الرؤيا.
(وفيات الأعيان ١-٤٥٣) .

نموت ونحيا كل يوم وليلة

ولابد يوما أن نموت ولا نحيا

وأما اشتعال النار وخمودها فمشهور متعارف أيضاً .

فمنه قول ذى الرمة يصف نارا اقتدحها :

فقلتُ له ارْفَعْها إليك فأحيها

بروحِكَ واقْتَتْه لها قِيتةً قَدْرا[1]

وقال آخر فى مثله :

وزهراءَ إن كفَّنْتُها فهو عيشها

وإن لم أكفنها فموت معجل

يعنى بالزهراء : الشرَرَة الساقطة من الزند عند الاقتداح .

يقول : إن بادرت إليها عند سقوطها من الزند فلففتها فى خرقة حَيِيتْ وإن تركتها ماتتْ وطُفِئت .

---

(١) رواية الديوان : وقلت بدل فقلت - ارفعها : أى ارفع النار - فأحيها بروحك : احيها بنفسك - اقتته : انفخ نفخاً ضعيفاً . واقتته : افتعل من القوت أى أطعمها . والضمير فى اقتته يعود إلى الروح (انظر شرح ديوان ذى الرمة ٣-١٤٢٩ . الخزانة ٤-٥٢) .

وأما الحياة والموت المستعملان بمعنى المحبة والبغضاء فكقول الشاعر :

أَبلغ أَبا مالكٍ عنى مُغَلْغَلَةً

وفى العتاب حياةٌ بينَ أقوام[1]

أى إذا تعاتبوا حييت المودةُ بينهم فإذا[2] تركوا العتاب ماتت المودة أى ذهبت وانقطعت وصاروا إلى البغضاء والتهاجر .

وأما الرطوبة واليبس فنحو ما ذهب إليه السُّدِّى فى قوله تعالى :

[يُخْرِجُ الحىَّ مِنَ الميّتِ ويُخْرِجُ الميتَ من الحى][3]

قال : معناه يخرج السنبلة الخضراء من الحبة اليابسة ، ويخرج الحبة اليابسة من السنبلة الخضراء . وهذا راجع إلى معنى الخصب والجدب من بعض وجوهه .

---

(١) المغلغلة : الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد . وهكذا أنشده ابن برى فى اللسان (غل) .

(٢) فى ب وإذا .

(٣) الروم : ١٩ .

وينحو نحوه قولُ ابن ميادة :—

سحائب لا مِنْ صَيِّفٍ ذى صواعق
ولا مُخْرِفــــاتٍ ماؤُهن حَمِـيمُ
إذا ما هَبَطْنَ الأَرض قد مات عودُها
بكَيْنَ بهــا حتى يعيش هشيم (١)

وأما الرجاءُ والخوف فلا أَذكر عليهما شاهدا غير قول أبي الطيب :

تَرَكْتَنىَ اليـــــومَ فى غفـــلة
أموت مِـرارًا وأَحْيًا مِراراً (٢)

---

(١) حدث اسحاق بن أيوب بن سلمة : قدم ابن ميادة معتمراً فى رجب سنة خمس ومائة فنزل مطر شديد بمكة توالت فيه الصواعق ، وهدمت بيوت ، فقال ابن ميادة : هذا العيث لا الغيث ، فقلت : فما العيث ؟ فأنشد هذين البيتين . والصيف : المطر ينزل صيفاً . والمخرفات: الممطرات فى الخريف . وهذه (رواية الكامل ١-٥١) ورواية (الأغانى ٢-٣٢٣) :
سحائب لا من صيب ذى صواعق — ولا محرقات ماؤهن حميم .
وابن ميادة هو الرماح بن أبرد بن ثوبان بن سراقة ينتمى إلى غطفان وأمه ميادة أم ولد وهو شاعر فصيح من مخضرمى الدوله الأموية والعباسية مات فى خلافة المنصور .

(٢) رواية الديوان : تركتنى اليوم فى خجلة . وهو يوافق ما فى ب . والبيت من قصيدة يخاطب بها سيف الدولة حين استبطأ مدح المتنبي اه فتنكر له . يقول فى مطلعها :
أرى ذلك القرب صار ازورارا وصـــار طويل السلام اختصارا

فهذه وُجوهُ الحياةِ والموتِ فى كلام العربِ قد استوفينا أقسامها لما جرى من ذكر الآية المتقدمة .

ثم نرجع إلى ما كنا فيه فنقول :

إن من[1] طريف [أمر][2] هذا الباب أنه قد يتولد منه مقالتان متضادتان كلاهما[3] غلط ، ويكون الحق فى مقالة ثالثة متوسطة بينهما ، ترتفع عن حد التقصير وتنْحطّ عن حد الغُلُو . وإذا تأَملت المقالات التى شجرت بين أهل ملتنا فى الاعتقادات رأَيت أكثرها على هذه الصفة .

وقد نَبَّهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله :

= يريد المتنبي أن يقول :

بقيت فى خجلة بين الناس لما أعرضت عنى فأموت بالخجلة ، فإذا ذهبت رجعت إلى الحياة ، وإذا عادت صرت ميتا ، فبقيت ميتا مراراً وحيا مراراً .

الديوان شرح العكبرى ٢-٩٤ .

(١) فى ط : ظريف وهو تحريف .

(٢) ساقط فى ب .

(٣) فى ب كلتاهما .

« دِين الله بَيْنَ الغَالِى والمقَصِّر »[1] .

وهذا تصريح منه بهذا الذى ذكرناه وتحذير منه . وقال أيضا « خير الأُمورِ أَوْسَاطُها »[2] .

وقال رجل للحسن البصرى عَلِّمنى دينا وَسُوطا . لا ساقطًا سُقُوطا ولا ذاهباً فُروطا[3] ، فقال : أحسنتَ خيرُ الأُمور أَوْسَاطُها .

وهذا نوع يطول فيه الكلام إن ذهبنا إلى تَتَبُّعه ولكنا نذكر منه شيئًا يستدل به على غيره .

فمن ذلك أن قوما لما خطر ببالهم أمرُ القدَرِ والقضاء ، و أحبوا الوقوف على حقيقة ما ينبغى أن يُعتقد فى ذلك .

---

(١) لم نعثر على هذا الحديث فى الصحاح ولا فى كتب الحديث الموثوق بها . وإن كانت وردت أحاديث كثيرة تنهى عن الغلو فى الدين .

(٢) هذا الحديث مطعون فيه . روى للديامى بلا سند مرفوعاً إلى ابن عباس بلفظ داوموا على الفرائض خير الأعمال أوساطها . وفى رواية خير الأمور .
(انظر كشف الخفاء ١-٤٦٩) .

(٣) أى دينا وسطا لا متقدما بالغلو ، ولا متأخرا بالتلو . والفروط : السبق . والفارط : المتقدم السابق ، ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنا فرطكم على الحوض . أى أنا متقدمكم إليه (اللسان فرط) والحسن البصرى إمام أهل البصرة . وحبر الأمة فى زمنه ولد بالمدينة وشب فى كنف على ابن أبى طالب . قال الغزالى كان الحسن البصرى أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء توفى بالبصرة سنة ١١٠ هـ
(حلية الأولياء ٢-١٣١ . الأعلام ٢-٢٤٢)

تأملوا القرآن العزيز والحديثَ المأثور ، فوجدوا فيهما أشياءَ ظاهرها الإجبار والإكراه ، كقوله تعالى :

[ولَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُم على الهُدَى فلا تكونَنَّ مِنَ الجَاهلين] [1] .

وقوله تعالى : [خَتَمَ اللهُ على قُلوبِهم وعلى سَمْعِهم وعلى أَبصارِهم غِشَاوَةٌ] [2] .

وقوله : [بل طبعَ اللهُ عَلَيها بكفرهم] [3] ، و [4] فى آيات كثيرة غير هذه .

ووجدوا فى الحديث المأثور نحو ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم : « السعيدُ من سَعِد فى بطن أُمِّه ، والشَّقِىُّ من شَقِىَ فى بَطْن أُمِّه » [5] .

فَبَنَوْا من هذا النوع من الآيات والأحاديث مقالة أَصَّلُوها على أن العبد مُجْبَر ليس له شىء من الاستطاعة ، وصرحوا بأن من اعتقد غير هذا فقد كفر .

---

(١) الأنعام : ٣٥ .

(٢) البقرة : ٧ .

(٣) النســاء : ١٥٥ .

(٤) زيادة ليتم بها ربط المعنى .

(٥) ورد فى مسلم باب القدر بلفظ : الشقى من شقى فى بطن أمه ؛ والسعيد من وعظ بغيره . وفى مسند أحمد ٢-١٧٦ « وإن الشقى من شقى فى بطن أمه » .

وخطر ببال آخرين مثلُ ذلك ، فرأَوْا[1] مذهب هؤلاء فلم يرضوه مُعْتَقداً لأنفسهم ، فتصفحوا القرآن والحديث ، فوجدوا فيهما آياتٍ أُخرَ ، وأَحاديث ظاهرها يوهم أَن العبد مستطيع مفوض أمره إليه ، يفعل ما شاء كقوله تعالى : (ولا يرْضى لِعِبَادِهِ الكفرَ)[2] ، وقوله تعالى : [وأَمَّا ثمودُ فَهَدَيْنَاهم فاسْتحبُّوا العمى على الهدى][3] ـ وقوله تعالى : [إنا هَدَيْنَاه السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وإما كَفُورًا][4] .

وقوله صلى الله عليه وسلم « كل مولودٍ يولد على الفطرة حتى يكون أَبواه هما اللذان يُهوِّدانه أَو يُنَصِّرانه أَو يُمَجِّسَانه »[5] .

وقوله عليه السلام : « يقول الله تعالى خلقت عبادى حنفاء كلَّهم فأَجالتهمْ الشياطين عن دينهم »[6] .

فبنوا من هذا النوع من الآيات والأَحاديث مقالة ثانية مناقضة للمقالة الأُولى أَصَّلُوها على أَن العبد مخير

---

(١) فى ب : ورأوا . (٢) الزمر : ٧ .
(٣) فصلت : ١٧ . (٤) الدهر : ٣ .
(٥) البخارى كتاب الجنائز ٢ـ٨٢ . ومسلم فى كتاب البر ٨ـ٥٢ .
(٦) رواه مسلم فى باب الجنة عن عياض بن حمار المجاشعى .

مفوض إليه أمره يفعل ما يشاءُ ويستطيع على ما لا يريده ربه ـــ .تعالى الله عما يقول الجاهلون علوًّا كبيرا ـــ

ثم عمدت كل فرقة من هاتين الفرقتين إلى ماخالف مذهبهامن الآيات والأَحاديث ،فطلبت له التأْويل البعيدَ وردوا ما أَمكنهم رده من الأَحاديث المناقضة لمذهبهم وإن كان صحيحاً ، كمن يروم ستر ضوءِ النهار ، ويؤسس بنيانه على شفا جرف هار .

ولما تأَملت طائفة ثالثة مقالتى الفرقتين معاً لم يرتضُوا بواحدة منهما معتقداً لأَنفسهم ورأَوا أَنهما جميعاً خطأ . لأَن المقالة الأُولى تَجْويزٌ للبارئ تعالى وإبطال للتكليف.

[والمقالة الثانية تجهيل للبارئ تعالى بأَمر خلقه[1]] وتعجيز له عن تمام مشيئته فيهم وكلا[2] الصفتين لا تليق بمن وصف نفسه بأَنه أَحكم الحاكمين وأَقدر القادرين ، ووصف نفسه[3] بقوله تعالى : [وما تَسْقُطُ

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ط .

(٢) فى ط وكلتــا .

(٣) فى ط . ووصف نفسه جل جلاله بقوله .

مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُها وَلَا حَبَّةٍ فى ظلمات الأَرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا فى كتابٍ مُبينٍ][1] .

ورووا أن الأخذ بالآيات والأحاديث الأُوَلِ ليس بأولى من الأخذ بالآيات والأحاديث الأُخر . وأن الحق إنما هو فى واسطة تنتظم الطرفين وتسلم من شناعة المذهبين واعتبروا القرآن والحديث ببصائرِ[2] أصح من بصائر الفريقين ، فوجدوا آياتٍ وأحاديث تجمع شتيت[3] المقالتين وتُخْبِرُ بغلط الفريقين كقوله تعالى : [ولوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إليْهِمْ شَيْئًا قليلاً][4] . وقوله تعالى فى يوسف عليه السلام : [وَلَقَدْ همَّتْ بِهِ وهَمَّ بها لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ ربِّه][5] ، وقوله تعالى : [وما تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ][6] . فأثبت للعبد مشيئة لا تتم إلا بمشيئة ربه تعالى ، ووجدوا الأُمة مجمعة على قولهم : لا حول ولا قوة إلا بالله . وفى هذا إثبات حول وقوة للعبد لا يتمان إلا بمعونة الله إياه ، ووجدوا

(١) الأنعام : ٥٩ .
(٢) فى الأصل : واعتبروا القول والحديث مصائر .
(٣) فى ط بين شتيت المقالتين . وفى ب : مشتت .
(٤) الاسراء : ٧٤ .
(٥) يوسف : ٢٤ .
(٦) الدهر : ٣٠ .

الأمة مجمعةً على الرغبة إلى الله فى العصمة والاستعاذة به من الخذلان (وقولهم : اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا فنعجزَ ولا إلى الناس فنضيَع)[1] ورأوا الله تعالى قد أثبت لنفسه علمَ غيب وعلم شهادة بقوله تعالى : [عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ][2] .

فعلمه الغيبَ : علمه الأشياء قبل كونها ، وعلمه الشهادة : علمه بالأشياءِ وقت كونها ، واعتبروا أحوال الإنسَان التى وقع فيها التكليف ، وأحواله التى لم يقع فيها تكليف ، فوجدوا الله تعالى لم يأمره بألا يسمع ولا يبصر ولا يأكل ، ولا يشرب على الإطلاق .

إنما أَمَرَهُ بأن يستعمل آلاته[3] التى يَسْمع[4] بها ويُبصر[5] ويأكل ويشرب فى بعض الأشياءِ ولا يستعملها فى بعض . فوجب أن يكون بين الأمرين فرق ، ولا فرق

---

(١) ما بين القوسين فى ب ، وط

(٢) الأنعام : ٧٣ .

(٣) فى ط : الآلة .

(٤) فى ب التى لم يسمع بها . وهو خطأ .

(٥) فى ط زيادة بها .

هاهنا إلا أنه مُكَّنَ من أحد الأمرين وجُعِلَتْ له استطاعة عليه ، ولم يمكن من الآخر .

وكذلك رأَوْا حركةَ يد المفلوج تخالف حركة يد الصحيح فثبت أن بينهما فرقا ، ولا فرق إلا وجود الاستطاعة (على وجه لا يقتضى ماتوهمته[1] القدرية من التفويض) . ووجدوا مع هذا أحاديث تؤيد بطلان قول الفريقين معاً . وتدل على أن الحق متوسط بين غلو أحد الفريقين وتقصير الآخر ، كنحو ما روى عن جعفر الطيار[2] رضى الله عنه أن رجلا قال[3] : هل العباد مجبرون ؟ قال[4] : الله أعدل من أن يَجْبُرَ عبدَه على معصية ، ثم يعذِّبَه عليها . فقال له السائل : فهل أمرهم مفوض إليهم ؟ فقال : الله أعزُّ من أن يجوز فى ملكه ما لا يريد . فقال له السائل : فكيف ذلك إذن ؟ قال : أمر بين الأَمْرَين . لا جبر ولا تفويض .

وكنحو ما روى عن على رضى الله عنه أنه لما انصرف

---

(١) ما بين القوسين زيادة فى ب ، ط .

(٢) فى ط . الصادق .

(٣) فى ط : قال له .

(٤) فى ب و ط : فقال جعفر .

من صِفِّين قام إليه شيخ فقال : يا أمير المؤمنين !! أرأيت مسيرنا إلى صفين أبقضاء وقدر ؟ . فقال علي : والله ما علونا جبلا ، ولا هبطنا وادياً ولا خطونا خطوة إلا بقضاء وقدر .

فقال الشيخ : فعند الله أحتسب عنائى إذن مالى من أجر .

فقال له على : مه ياشيخُ فإن هذا قول أولياء الشيطان وخصماء الرحمن ، قَدَرِيَّة هذه الأُمة أن الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا ، لم يُعْصَ مغلوبا ، ولم يُطَعْ مكرها . فضحك الشيخ ، ونهض مسرورا ، ثم قال :

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته
يوم القيامة من ذى العرش رضوانا
أوضحتَ من ديننا ما كان ملتبِسا
جزاك ربُّك عنا فيه إحسانا

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه نحوُ مقالة جعفر .

(فلما وجدوا جميع هذا الذى ذكرناه جمعوا الآيات

والأحاديث)[1] وبنوا بعضها على بعض فأنتج لهم من مجموعها مقالة « ثالثة » سليمة من شناعة المقالتين منتظمة لكل واحد من الطرفين ارتفعت عن تقصير الجبرية ، وانحطت عن غلو القدرية . فوافقت قولَه صلى الله عليه وسلم : « دين الله بين الغالى والمقصر » .

بنوا تفريعها على أَصلٍ . جملةُ الغرض منه : أن الله تعالى عِلْمَ غيب سَبَق بكل ما هو كائن قبل كونه ، ثم خلق الإنسان فجعل له عقلا يرشده ، واستطاعة يصح بها تكليفُه ، ثم طوى علمه السابق عن خلقه ، وأمرهم ونهاهم ، وأوجب عليهم الحجة من جهة الأمر والنهى الواقعين عليهم [لا][2] من جهة علمه السابق فيهم فهم يتصرفون بين مطيع وعاصٍ ، وكلهم لا يعدو علم الله السابقَ فيهم .

فَمَنْ عَلِمَ اللهُ تعالى منه أنه يختار الطاعة فلا يجوز أن يختار المعصية ومن علم أنه يختار[3] المعصية فلا يجوز أن يختار الطاعة ؛ ولو جاز ذلك لم يكن علم الله

(١) ما بين القوسين ساقط من ب .

(٢) (لا) موجودة فى ب . دون الأصل والمعنى لا يصح إلا - ١ .

(٣) فى ب : يتخير

تعالى موصوفا بالكمال ، ولكان كعلم المخلوق الذى يمكن أن يقع الأمر كما علم ، ويمكن أن يقع خلاف ما علم .

وليس فى علم الله الأمورَ قبل وقوعها إجبارٌ على ما توهمه المجبرون ، ولا تتم لأحد استطاعةٌ على ما يهم به من الأمور إلا بأن يعينه الله تعالى عليه أو يَكِلَهُ إلى حوله ، ويسلمَه إليه .

فإن عصمه مما يَهُمُّ به من المعصية[1] كان فضلاً ، وإن وكله إلى نفسه كان عَدْلًا . فإذا اعتُبِرَتْ حال العبد من جهة الإضافة الى علم الله السابق فيه الذى لا يعدوه وجد فى صورة المجبَر ، وإذا اعتبرت حاله من جهة الإضافة إلى الاستطاعة المخلوقة له ، والأمر والنهى الواقعين عليه وجد فى صورة المُفَوَّض إليه . وليس هناك إجبار مطلق ، ولا تفويض مطلق ، إنما هو أمر بينَ أمرين ، يَدِقُّ عن أفكار المعتبرين ، ويحيِّر أذهان المتأملين .

وهذا هو معنى ما أشار إليه حُذَّاق أهل السنة من قولهم : إن العبد لا مُطْلَقٌ ، ولا (موثَق)[2]. فما ورد من

(١) فى ط : المعاصى .

(٢) فى ب : موثوق . ويبدو أنه محرف لأنه اسم مفعول من أوثقته فهو موثق .

الآيات والأحاديث التي ظاهرها الإجبار ، فهو مصروفٌ إلى أحد ثلاثة أشياء :ـ

إما إلى العلم السابق الذى لا مخرج للعبد [منه][1] ، ولا يمكنه أن يتخير غيره .

وإما إلى فعلٍ فعله الله تعالى به على جهة العقاب ، كقوله تعالى : [بلْ طبَعَ اللهُ عَلَيْها بكفرِهم][2] .

وإما إلى الإخبار عن قدرته تعالى على ما يشاء كقوله : [ولو شاءَ اللهُ لجَمَعهُمْ على الهُدَى][3] .

وما ورد من الآيات والأحاديث ظاهره التفويض ، فهو مصروف إلى الأمر والنهى الواقعين عليه .

وإنما غلطت القدرية فى هذا لأنهم لا يثبتون لله تعالى علما سابقا بالأمور قبل وقوعها . وعلم الله عندهم محدث (تعالى الله عما يقول الجاهلون)[4] . فاعتبروا حال العبد من جهة الأمر والنهى والاستطاعة المركبة فيه لا من جهة العلم السابق .

---

(١) ساقطة من الأصل ثابتة فى ب .
(٢) سورة النساء : ١٥٥ .
(٣) الأنعام : ٣٥ .
(٤) ساقط فى ط .

وغلطت الجبرية لأنهم اعتبروا حال العبد من جهة علم الله السابق فيه لا من جهة الأمر والنهى الواقعين عليه [وظنوا أن علم الله تعالى بجميع ما يفعله العبد قبل فعله إياه إجبار منه له على الفعل . وكلا القولين غلط لأنهم أخذوا بالطرف الواحد وتركوا الآخر][1] .

ورأى المشيخة وجلةُ العلماء الوقفَ عن الكلام فى ذلك والخوضَ فيه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا ذكر القضاء فأمسكوا »[2]. فكان هذا المذهب أحسنَ المذاهب لمن آثر الخلاص والسلامة .

ولم يكن نهيه صلى الله عليه وسلم ونهى العلماء عن ذلك من أجل أن هذا أمر لا يمكن معرفة الحقيقة منه ، وإنما كان من أجل دقته وخفائه ، فإنه أمرٌ الخطأُ فيه أكثرُ من الإصابة فأنت ترى القدرية والجبرية إلى يومنا هذا يختصمون فيه ، ويناقض بعضهم بعضا ،

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ط ، ومن الأصل .

(٢) فى كتب الحديث : إذا ذكر القدر فأمسكوا . وهو جزء من حديث رواه الطبرانى فى المعجم الكبير عن ابن مسعود مرفوعا بسند ضعيف وهو : إذا ذكر أصحابى فأمسكوا وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا .

ولا يصلون إلى شفاء نفس ، وكل فرقة من الفرقتين يفضى مذهبها إلى شناعة ، إذا أُلْزِمَتْها فَرَّتْ عنها .

[وكلا الطائفتين قد أخطأت التأويل ،وخلت عن نهج السبيل ، ووصفت الله بصفات لا تليق به عند ذوى العقول][1].

وهذه[2] جملة قليلة تفصيلها كثير و [هو[3]] باب ضيق المجال جداً ، والخائض فيه تسبق إليه الظِّنة بغير ما يعتقده ، فلذلك نتحامى الكلام فيه بأكثر مما نبهنا عليه ، مع أنا لم نضع كتابنا هذا للخوض فى المقالات ، إنما وضعناه لتبيين المواضع التى نشأ منها الخلاف .

لكنا نقول ينبغى لمن طلب هذا الشأن ، ولم يقنعه ما رآه العلماء ، وأمروا به من ترك الخوض فيه[4] أن يراعىَ أصلين ، فإن صحا له من معتقده ، فليعلم أنه [قد[5]]

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ا ، ط موجود فى ب .

(٢) فى ط زيادة — أعزك الله .

(٣) فى ب وهذا .

(٤) فى ب زيادة العبارة الآتية (وتوهم أن له منة) قوة (يصل بها إلى الحقيقة من أمره) .

(٥) قد ساقطة من ب .

أصاب فَصَّ الحق . وإن أخطأهما ، أو واحداً منهما . فلعلم أنه قد غلط فليراجع النظر

أحدهما أنه لا فاعل على الحقيقة إلا الله تعالى ، وأن كلّ فاعل غيره إنما يفعل بمعونة من عنده ومادة يُمده بها من فيضه وحوله . ولو وكله إلى نفسه لما كان له فعل ألْبتَّة[1] .

والثانى أن أفعال البارى تعالى[2] كلَّها حكمة محضة لا عبث فيها ، وعدل محض لا جور فيه ، وحُسن محض لا قبح فيه ، وخير محض لا شر فيه ، وأن هذه الأشياء[3] إنما تعرض فى أفعالنا إما لوقوع الأمر والنهى علينا ، وإما لما رُكِزَ فى خلقتنا من القوة العقلية التى ترينا بعض الأشياء حسنا ، وبعضَها قبيحا ، وكلا الصفتين لا يوصف بهما البارى تعالى لأنه لا آمر فوقه ولا ناهى[4] ، وهو خالق العقل وموجدُه .

وجملة ذلك أنه لا يشبه شيئًا من المخلوقات فى جهة

(١) ألبتة أى قطعاً بهمزة قطع . ويجوز وصلها . انظر القاموس وشرحه :
(٢) فى ط : عز وجل .
(٣) فى ط : الأفعال .
(٤) فى الأصل : ناه . وهو أيضاً صحيح .

من الجهات ، فكل قول أدَّاك إلى تشبيهه بخلقه فى ذات أو فعل فارفضه رفض التراب[1] ، وانبذه نبذ القَذَاة ، واعلم بأن الحق فى غيره فابحث عنه حتّى تظفرَ به ، وإن لم يتفق لك فهمُ الغرض منه والمراد فاشدد يدك بعروة هذا الاعتقاد ، ولا تتهم بارئك فى حكمته ، ولا تنازعه فى قدرته . واعلم بأنه غنى عنك ، وأنت مفتقر إليه ، ووارد بما تزودت من عملك[2] عليه تبارك المتفرد بأقضيته وأحكامه ، الذى لا ينازَع فى نقضه وإبرامه ، ولا يَمْتَرى العاقلون فى عدله ، ولا يَيْأس المذنِبُون من عَفْوِه وفضله ، لا رب سواه ، ولا معبود حاشاه .

---

(١) هكذا فى ا ، وفى ب فارفضه النواة ، وفى ط فارفضه رفض القذاة ، وانبذه نبذ النواة .

(٢) فى ط : من علمك .

الباب الرابع

في الخلاف العارض
من جهة
العموم
والخصوص

هذا الباب نوعان :

أحدهما : يعرض فى موضوع اللفظة المفردة .

والثانى : يعرض فى التركيب .

فأما الذى يعرض فى موضوع [اللفظة[1]] المفردة فنحو : الإنسان ، فإنه يستعمل عموماً وخصوصا .

أما العموم فكقوله تعالى : [يا أَيُّها الإنسانُ ما غَرَّك بربِّك الكريمِ][2].

وقوله تعالى : [إن الإنْسانَ لفى خُسْرٍ][3] .

ويدل على أنه لفظ عام لا يخص واحداً دون آخر قوله تعالى : « إلَّا الذين آمنوا » فاستثنى منه ، ولا يستثنى إلا من جملة .

ونحو هذا قول العرب : أَهلكَ الناسَ الدينارُ والدرهم ،

---

(١) ساقط فى ب (٢) الانفطار : آية ٦ .

(٣) العصر : الآية ٢ .

وقولهم : المَلَكُ أفضل من الانسان ، والإنسان مُتَعَبد دون سائر الحيوان .

والخصوص نحو قولهم : جاءنى الانسان [الذى تعلم ، ولقيت الرجل][1] الذى كلمك ، وقولهم : شربت الماء ، وأكلت الخبز . ولم يشرب جميع الماء ولا أكل جميع الخبز ، وهذا كثير مشهور تغنى شهرته عن الإكثار منه ، وقد يأتى من هذا الباب فى القرآن والحديث أشياء يتفق الجميع على عمومها أو على خصوصها ، وأشياء يقع فيها الخلاف[2] .

فمن العموم الذى لم يختلف فيه قوله تعالى :

[يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكم][3] و [يا أَيُّها النَّاسُ إِن وَعْدَ الله حقٌّ][4]

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الزعيم غارم ، والبينة على المدَّعِي ، واليمين على المدَّعَى عليه » ونحو ذلك كثير[5].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ط

(٢) كلمة يقع ساقطة من ا والكلام مستقيم دونها .

(٣) النساء : آية ١ .
(٤) فاطر : الآية ٥ .

(٥) سبق تخريج هذا الحديث.

ومن الخصوص الذى لم يختلف فيه قوله تعالى : [الذِينَ قَالَ لَهُمْ الناسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لكم][1].

وهذا القول لم يقله جميع الناس إنما قاله رجل واحد ، وهو نُعَيْمُ بن مسعود ولا جمع لهم جميعُ الناس ، إنما جمع لهم جزء منهم[2].

ومما وقع فيه الخلاف فاحتاج إلى فضل نظر قوله تعالى : [وإنْ تُبدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أو تخفُوهُ يُحَاسِبْكُم به الله][3]

قال قوم : إن هذه الآية نزلت عموما ثم خصصت[4] بقوله صلى الله عليه وسلم : « صُفِحَ لأُمَّتِى عَمَّا حدَّثَتْ بِهِ نفوسها ما لم تَكَلَّمْ به أو تَعْمَل »[5].

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (هى خصوص فى الكافر يحاسبُه الله بما أَسَرَّ وأَعْلَنَ) .

---

(١) آل عمران : آية ١٧٣ .

(٢) هو أبو سفيان وأصحابه .

(٣) البقرة : آية ٢٨٤ .

(٤) فى ط : نسخت .

(٥) هذا الحديث فى الصحيحين والسنن من طريق قتادة عن زرارة ابن أوفى عن أبيه عن أبى هريرة واستدل به جماعة على أن الآية منسوخة بالآية بعدها وقد ثبت النسخ بهذا الحديث .

انظر ابن كثير فى تفسير الآية .والقرطبى ٣-٤٢٢ والمنار ٣-١٣٩ .

والقول الأَول [أَصح][1] لقوله تعالى بأَثر ذلك : [فيغفرُ لمنْ يَشاءُ ويُعَذِّبُ من يَشاءُ]

ولا خلاف فى أن الكافر معذب غيرُ مغفور له . فدل هذا على أَن الخطاب وقع عموماً لا خصوصا (ثم خصص بما ذكرناه)[2] .

ومن ذلك قوله تعالى : [كلٌّ لَهُ قَانِتُونَ][3] .

قال قوم : هذا خصوص فى أَهل الطاعة ، واحتجوا بأَن كلاًّ[4] وإن كانت فى غالب أَمرها للعموم فإنها قد تأَتى للخصوص كقوله تعالى : [إنِّى وجدتُ امْرَأَةً تملِكُهُمْ وأُوتِيَتْ منْ كلِّ شَئٍ][5]. وقوله تعالى : [ريحٌ فيهَا عذَابٌ أَليمٌ تُدَمِّرُ كلَّ شئٍ بأَمْرِ ربّهَا] ، ثم قال : [فأَصْبحُوا لاتُرَى[6] إلا مَسَاكِنُهُمْ][7] . وقال آخرون : هى عموم . واختلف القائلون بالعموم .

---

(١) فى ب : أصح وأرجح .
(٢) ساقط من ط . (٣) البقرة : ١١٦ .
(٤) انظر المغنى لابن هشام ١-١٩٣ .
(٥) النمل : آية ٢٣ .
(٦) هكذا فى ا ، ب بالتاء. وهى قراءة يقرأ بها . وفى المصحف الشريف « لا يرى » .
(٧) الأحقاف ٢٤ ، ٢٥

فقال قوم : أراد أنهم مطيعون له يوم القيامة . وهذا روى عن ابن عباس . وقال آخرون : مطيعون فى الدنيا ، واختلف القائلون بالطاعة فى الدنيا فقال بعضهم : طاعة الكافر سجود ظله لله ، واحتجوا بقول الله عز وجل : [وللهِ يسْجُدُ مَنْ فى السَّمَوَاتِ ، والأَرضِ طَوْعًا وكرْهًا وظلالُهمُ بالغُدُوِّ والآصَالِ][1] .

وقال آخرون : إن معناه أن كل ما خلق الله تعالى ففيه أثر للصنعة قائم ، وميسم للعبودية شاهد أن له خالقا حكيما ، لأن أصل القنوت فى اللغة : القيام ، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل أى الصلاة أفضل ؟ فقال : « طولُ القنوت »[2] فالخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم قائمون بالعبودية ، إما إقراراً بألسنتهم ، وإما بآثار الصنعة البينة فيهم .

ومن هذا الباب قوله تبارك وتعالى : [لا إكراه فى الدين][3].

---

(١) الرعد : الآية (١٥)

(٢) ورد فى سنن النسائى ٥-٤٣ . وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أى الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان لا شك فيه وجهاد لا غلول فيه . وحجة مبرورة . قيل فأى الصلاة أفضل ؟ قال طول القنوت .

(٣) البقرة : ٢٥٦ .

قال قوم : هذا خصوص فى أهل الكتاب لا يكرهون على الإسلام إذا أدّوْا الجزية ، وهو قول الشعبى ، وكان ابن عباس - رضى الله عنه - يراه أيضا خصوصا ، وفسره فقال : معناه : إن المرأة من الأنصار كانت لا يعيش لها ولد ، فتنذر على نفسها لئن عاش لَتُهوِّدَنَّه . فلما أُجْلِى بنو النضير إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار ، فقال الأنصار : يا رسول الله : أبناؤنا !! فأنزل الله تعالى هذه الآية :

وقال قوم هى عموم ثم نسخت بقوله تعالى : [جاهد الكافرين والمنافقين] [1] .

ومن هذا الباب قوله تعالى : [علم الإنسانَ ما لم يعلمْ] [2]. ذهب قوم إلى أنه خصوص ، واختلفوا فى حقيقة ذلك . فقال بعضهم : أراد آدمَ عليه السلام واحتجوا بقوله تعالى : [وعلَّمَ آدمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا] [3]

وقال بعضهم : أراد محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ واحتجوا بقوله عز وجل : [وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تكُنْ تَعْلَمُ]. [4]

---

(١) التحريم : ٩ .
(٢) العلق : ٥ .
(٣) البقرة : ٣١ .
(٤) النساء : ١١٣ .

وقال آخرون : هى عموم فى جميع الناس وهو الصحيح .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : [المؤمِن يأكلُ فى مِعًى[1] واحِدٍ ، والكافِرُ يأكُلُ فى سَبْعَةِ أمْعَاءٍ »[2].

قال قوم هذا خصوص فى جَهْجَاه الغِفَارِىّ ورد على النبى صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام فحلبت له سبع شياهٍ فشرب لبنها ، ثم أسلم ، فحلبت له شاة فكفَتْهُ فذُكِر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال هذه المقالة . وقال قوم : إنه عموم فى كل كافر . واختلفوا فى حقيقة معناه :

---

(١) فى الأصل معاء وما أثبتناه هو ما فى كتب الحديث . والمعى : مذكر وقد يؤنث .

(٢) هكذا روى عن جابر وابن عمر . ورواه نافع عن ابن عمر بلفظ « الكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، والمؤمن يأكل فى معى واحد » .

وروى أبو هريرة أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ضافه ضيف وهو كافر ، فأمر له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشاة فحلبت فشرب حلابها ثم أخرى فشربه ثم أخرى حتى شرب حلاب سبع شياه . ثم إنه أصبح فأسلم . فأمر له رسول الله بشاة فشرب حلابها ، ثم أمر بأخرى فلم يستتمها . فقال رسول الله : المؤمن يشرب فى معى واحد والكافر يشرب فى سبعة أمعاء (البخارى باب الأطعمة) ، (مسلم كتاب الأشربة والأطعمة ٦ـ١٣٢ ، ١٣٣) .

فقال قوم معناه أن المؤمن يسمى الله على طعامه فتكون فيه البركة والكافر بخلاف ذلك .

وقال آخرون[1] إنما ضرب هذا مثلا للزَّهَادَةِ فى الدنيا والحرص عليها ، فجعل المؤمن لقناعته باليسير من الدنيا كالآكل فى معى واحد . والكافر لشدة رغبته فى الدنيا كالآكل فى سبعة أمعاء .

وهذا القول أصح الأقوال ، ويشهد لصحته ما رواه أبو سعيد الخُدْرِىِّ - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيكم ما يخرجُ الله لكمْ مِنْ بَرَكَاتِ الأَرْضِ . فقال له رجل يا رسول الله هَلْ يأْتِى الخيرُ بالشَّرِّ ؟ فَسَكَتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتَّى ظَنَنَّا أنه يُوحَى إليه ، ثم مَسَحَ العرقَ عن جَبِينِهِ ، وقال : أَينَ السَّائِلُ ؟ فقال : هَا أَنَذَا

---

(١) حبذ المؤلف هذا الرأى ، ويؤيده . ما قال الأزهرى فى اللسان : (المعى واحد الأمعاء . يذكر ولا يؤنث إلا قليلا ، وفى الحديث وجه ثالث وأحسبه الصواب الذى لا يجوز غيره : وهو أنه مثل ضربه للمؤمن وزهده فى الدنيا وقناعته بالبلغة من العيش وما أوتى من الكفاية ، وللكافر واتساع رغبته فى الدنيا وحرصه على جمع حطامها ، ومنعها من حقها مع ما وصف به الكافر من حرصه على الحياة وركونه إلى الدنيا واغتراره بزخرفها . اللسان (معى) .

يا رسول الله . فقال : إن الخير لا يَأْتِى إلا بالخَيْر ثَلَاثًا ، ولكن هذا المال خَضِرَة حُلوَة ، وإن مما يُنْبِتُ الربيعُ ما يَقْتُل حَبَطًا أو يُلِمّ إلا آكلة الخضر تأكل حتى إذَا امْتَلأَتْ خاصرتاها اسْتقبلتْ الشمس فَبَالتْ وسَلَطَتْ ، ثم عادَتْ فأكلت ، إن هذا المال خَضِرةٌ حلْوَة من أخذه بحقه وَوَضَعَهُ فى حقه فنِعْمَ المعونةُ هو . وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حقِّه وَوَضَعَهُ فى غيرِ حقِّه كانَ كالذى يأكلُ ولا يشبعُ »[1] .

ونحو من هذا أيضا قول أبى ذر : تخضمُون ونقضم والموعد الله[2]

والخضم الأكل بالفم كله فضربه مثلا للرغبة فى الدنيا ، والقضم الأكل بأطراف الأسنان فضربه مثلا للقناعة ونيل البلغة من العيش .

---

(١) ورد فى البخارى باب الرقاق ٨-٧٧ . وفى مسلم باب الزكاة ٣-١٠١ . النهاية فى غريب الحديث .

(٢) وفى اللسان فى حديث أبى ذر : تأكلون خضما ونأكل قضما . وفى حديث أبى هريرة أنه مر بمروان وهو يبنى بنيانا له ، فقال ابنوا شديداً ، وأملوا بعيداً ، واخضموا فسنقضم . والخضم : الأكل بأقصى الأضراس ، والقضم بأدناها ، وقيل الخضم ملء الفم بالمأكول ، أو الأكل بجميع الفم ، وكل أكل فى سعة ورغد خضم . والقضم الأكل بأطراف الأسنان . (اللسان مادة خضم وقضم) .

وقيل الخضم : أكل الرطب ، والقضم أكل اليابس وهو نحو المعنى الأول . وقد يأتى من هذا الباب ما موضوعه فى اللغة على العموم ؛ ثم تخصصه الشريعة . كالمتعة فإنها عند العرب كلُّ شيءٍ استمتع به [لا يخص به شيء دون شيء آخر] [1] ثم نقلت عن ذلك واستعملت فى الشريعة على ضربين :

أحدهما : المتعة التى كانت مباحة فى أول الإسلام ، ثم نُهى عنها ، ونسخت بالنكاح والولى .

والثانى : ما تمتع به المرأة من مهرها كقوله تعالى : [وَمَتِّعُوهُنَّ على الموسِعِ قَدَرُهُ وَعلَى المُقْتِرِ قَدَرُه] [2].

ولأجل هذا الذى ذكرناه وقع الخلاف فى قوله تعالى : [فما اسْتَمْتَعْتُم به مِنهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورهُنَّ فَرِيضَةً] [3].

(فكان ابن عباس يذهب بمعناه إلى المتعة الأولى .

وذهب جماعة من الفقهاء إلى أن المتعة الأولى منسوخة ، وأن هذه الآية كالتى فى البقرة ، وأن معنى « فآتوهن أُجُورَهُنَّ » إنما أراد المهر) [4] .

---

(١) عبارة : ب لا يخص شيئاً دون آخر .

(٢) البقرة : ٢٣٦ .

(٣) النساء : ٢٤ .

(٤) ما بين القوسين ساقط من ط .

والدليل على صحة قول الجماعة [قوله تعالى [1]] :
[فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً] [2]
فهذا المهر بإجماع .

(١) ساقط من ط :
(٢) النساء : ٢٥ .

الباب الخامس

في الخلاف العارض من جهة الرواية

هذا الباب لا تتم الفائدة التى قصدناها منه إلا بمعرفة العلل التى تعرض للحديث فتحيل معناه ، فربما أوهمت فيه معارضة بعضه لبعض ، وربما ولدت فيه إشكالا يحوج العلماء إلى طلب التأويل البعيد .

ونحن نذكر العلل كم هى ؟ ونذكر من كل نوع منها مثالا ، أو أمثلة يستدل بها على غيرها إن شاء الله تعالى .

اعلم أن الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه والتابعين لهم رضى الله عنهم تعرض له ثمانى علل :

أولها : فساد الإسناد . والثانية : من جهة نقل الحديث على معناه دون لفظه ، والثالثة : من جهة الجهل بالإعراب والرابعة : من جهة التصحيف ، والخامسة : من جهة إسقاط شيء من الحديث لا يتم المعنى إلا به والسادسة : أن ينقل المحدث الحديث[1] ويغفل نقل السبب الموجب

(١) فى ط : أن ينقل المحدث بعض الحديث .

له ، أو بساط الأمر الذى جر ذكره ، والسابعة : أن يسمع المحدث بعض الحديث ويفوته سماع بعضه . والثامنة : نقل الحديث من الصحف دون لقاء الشيوخ .

العلة الأولى

وهى فساد الإسناد ، وهذه العلة أشهر العلل عند الناس حتى إن كثيراً منهم يتوهم أنه إذا صح الإسناد صح الحديث ، وليس كذلك ، فإنه قد يتفق أن يكون رواة الحديث مشهورين بالعدالة معروفين بصحة الدين والأمانة غير مطعون عليهم ، ولا مستراب بنقلهم . ويعرض مع ذلك لأحاديثهم أعراض على وجوه شتى من غير قصد منهم إلى ذلك على ما تراه فى بقية هذا الباب إن شاء الله تعالى .

والإسناد يعرض له الفساد من أوجه : منها الإرسال وعدم الاتصال . ومنها أن يكون بعض رواته صاحب بدعة ، أو متهما بكذب ، وقلة ثقة ، أو مشهوراً ببله وغفلة ، [أو يكون[1]] متعصباً لبعض الصحابة منحرفا عن بعضهم ، فإن من كان مشهوراً بالتعصب ،

(١) فى ب : أن يكون .

ثم روى حديثا فى تفضيل من يتعصب له ، ولم يرد من غير طريقه لزم أن يستراب به ، وذلك أن إفراط عصبية الإنسان لمن يتعصب له ، وشدة محبته فيه (يحمله[1]) على افتعال الحديث ، وإن لم يفتعله بدّله وغيّر بعض حروفه كنحو ما فعلت الشيعة .

فإنهم رووا أحاديث كثيرة فى تفضيل على رضى الله عنه ، ووجوب الخلافة له ينكرها أهل السنة مثل روايتهم أن نجْمًا سقط على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انظروا . (فنى[2]) منزل من وقع فهو الخليفة بعدى ، فنظروا فإذا هو قد سقط فى دار على - رضى الله عنه - فأكثر الناس فى ذلك الكلام ، فأنزل الله تعالى : [والنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى][3].

فهذا حديث لا يشك ذو لب فى أنه مصنوع مركب على الآية[4] .

---

(١) فى ب تحمله .

(٢) فى ب : انظروا فى منزل من وقع .

(٣) النجم : ١ .

(٤) هذا حديث موضوع ، وفى اسناده أبو صالح باذم . وهو كذاب ، والكلبي . وهو من الذين يقولون : إن عليا لم يمت ، وأنه يرجع إلى الدنيا ،

وكالذى فعلت المعتزلة فإنهم تجاوزوا تغيير الحديث إلى أن راموا تغيير القرآن فلم يصح لهم ذلك فى القرآن لإجماع الأمة [عليه][1] ، وصح فى كثير من الحديث : فغيروا فى المصحف مواضع كثيرة كقراءتهم : [مِنْ شَرٍّ مَا خَلَقَ[2]] بالتنوين . وقراءتهم : [قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَسَاءَ][3]. بسين غير معجمة وفتح الهمزة[4].

= وإذا رأوا صحابة قالوا أمير المؤمنين فيها . ومما يدل على كذبه أنه اسند إلى ابن عباس ، وابن عباس حينئذ عنده سنتان .
راجع الموضوعات لابن الجوزى ١-٣٧٢ .

(١) ساقط من ب .

(٢) الفلق : ٢ .

(٣) الأعراف : ١٥٦ .

(٤) المؤلف ناقض نفسه هنا فهو يقرر أولا أنه لم يصح لهم تغيير فى القرآن لأجماع الأمة عليه ، وإنما غيروا ودلسوا فى الحديث ، وهذا كلام حق ، فما كان له بعد ذلك أن يقول : فغيروا فى المصحف مواضع كثيرة ؛ لأن هذا يضعف الثقة فى القرآن ، والله يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » أما القراءات التى ذكرها فهى قراءات شاذة ، لا تدل على عبثهم بالمصحف ، إذ لم ينفرد المعتزلة بروايتها ، وشأنها شأن غيرها من القراءات الشاذة يرفضها بعض العلماء ، ويصححها بعض ويقبلها فريق ، ويزيفها فريق آخر .

فقراءة (قال عذابى أصيب به من أساء) قال عنها ابن جنى إنها قراءة الحسن البصرى وعمرو بن فايد أبو على الأسوارى ، ونوه ابن جنى بهذه القراءة وأعلى من شأنها . (انظر المحتسب ١-٢٦١) ونسبها ابن خالويه إلى الحسن أيضا وعمرو بن عبيد وهو من زعماء المعتزلة (مختصرا لقراءات الشاذة =

وقالوا فى قوله تعالى : [وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً من الجنِّ والإِنْسِ] (١).

إن معناه : دفعنا ، وأنشدوا قول المثقّب :

لابن خالويه طبع أوروباص٤٦) . وقال الزمخشرى فى الكشاف٢-١٦٥ وقرأ الحسن البصرى (قال عذابى أصيب به من أساء من الإساءة .

وفى البحر المحيط ٤-٤٠٢ وقرأ زيد بن على والحسن وطاووس وعمرو ابن فايد (من أساء) من الإساءة . وقال أبو عمرو الدانى : لا تصح هذه القراءة من الحسن وطاووس ، وعمرو بن فايد رجل سوء . وقرأ بها سفيان ابن عيينه مرة ، واستحسنها ، فقام إليه عبد الرحمن المقرى وصاح به ، وأسمعه ، فقال سفيان : لم أدر ، ولم أفطن لما يقول أهل البدع . ويقول أبو حيان : وللمعتزلة تعلق بهذه القراءة من جهة إنفاذ الوعيد ، ومن جهة خلق المرء أفعاله . وإن أساء فلا فعل فيه لله تعالى .

أما قراءة (من شر ما خلق) فأسندها ابن خالويه إلى عمرو بن فايد الأسوارى ص ١٨٢ وفى البحر المحيط : وقال ابن عطية : وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله لم يخلق الشر «من شر» بالتنوين (ما خلق) على النفى وهى قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل . الله خالق كل شىء ٨-٥٣٠ البحر المحيط .

وأقول لا يتعين على هذه القراءة أن تكون ما نافية ، بل تحتمل وجوها مختلفة . وجملة القول أن هاتين القراءتين لم ينفرد بروايتهما المعتزلة . فلا ينبغى أن نحكم عليهم بأنهم غيروا القرآن فى مواطن كثيرة ، ولا يحملنا التعصب على أن نرميهم بكل نقيصة حتى لا نسىء إلى القرآن من حيث نريد الدفاع عنه.

(١) الأعراف : ١٧٩ .

تقول إذا ذرأتُ لها وَضِينِي
هــذا دِينُــه أبدا ودِينِي[1]

وليس كما زعموا[2]. إنما يقال فى الدفع درأت بدال غير مُعجَمةٍ ، وكذلك روى بيت المثقب بدال غير معجمة ، وإنما ذرأنا بالذال معجمة بمعنى خلقنا .

وقد روى عن بعضهم أنه قرأ : (ولقد درأنا) بالدال غير معجمة .

ومما يبعث على الاسترابة بنقل الناقل أن يُعلمَ منه حرص على الدنيا وتهافت على الاتصال بالملوك ، ونيل المكانة والحظوة عندهم ، فإن من كان بهذه الصفة لم يؤمن عليه التغيير والتبديل والافتعال للحديث والكذب

(١) روى أيضاً : أهذا دأبه أبداً ودينى ؟ وهو فى هذا البيت يذكر ناقته . الوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشد به الرحل على البعير . ودرأ وضين البعير إذا بسطه على الأرض ثم برك عليه البعير ليشد به الرحل . والدين : العادة والشأن . تقول العرب ما زال هذا دينى وديدنى أى عادتى . والمثقب العبدى هو محصن وقيل : عائذ بن محصن بن ثعلبة شاعر جاهلى . انظر خزانة الأدب ٤-٣٢٩ . الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٢) إنما أولوا ذرأ بدفع لأن ظاهر الآية ينافى مذهب القدرية والمعتزلة الذى يجعل للعبد اختياراً مطلقاً وأنه خالق لأفعاله .

حرصا على مكسب يحصل عليه ، ألا ترى إلى قول القائل :

ولستُ وإن قُرِّبْتُ يوما ببـائع
خلاقى ولا دينى ابتغـــاءَ التحبب
ويعتـــده قــوم كثير تجـــارة
ويمنعني من ذاك دينى ومنصبى

وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو هذا الذى ذكرناه بقوله : « إنَّ الأَحَادِيثَ ستكثُرُ بعدِى كَما كَثُرَتْ [عَلَى[1]] الأَنْبِيَاء قَبْلى ، فَمَا جَاءَكُمْ عنىّ فاعْرِضُوه على كِتَاب الله تعالى ، فمَا وافَقَ كتابَ الله فهُوَ عَنِىّ قُلْتُه أو لَمْ أَقُلْهُ[2]] .

وقد روى أن قوماً من الفرس واليهود وغيرهم لما رأوا الإسلام قد ظهر[3]ودَوَّخَ جميع الأُمم ورأوا أنه لا سبيل إلى مناصبته رجعوا إلى الحيلة والمكيدة ، فأظهروا

(١) فى ط : عن .

(٢) لم يرد هذا الحديث فى الصحاح ولا فى كتب الحديث المعتمدة وفى الموافقات للشاطبي ٤ـ١١ أنه موضوع

(٢) فى ط : ظهر وعم ، ودوخ وأذل :

الإسلام [عن[1]] غير رغبة فيه ، وأخذوا أنفسهم بالتعبد والتقشف . فلما حمد الناس طرائقهم ولدوا الأحاديث والمقالات ، وفرقوا الناس فرقا . وأكثر ذلك فى الشيعة كما يحكى عن عبد الله بن سبإٍ اليهودى أنه أسلم ، واتصل بعلى رضى الله عنه ، وصار من شيعته ، فلما أخبر[2] بموته قال : كذبتم ، والله لو جئتمونا بدماغه مصرورا فى سبعين صرة ما صدقنا بموته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جَوْرًا ، نجد ذلك فى كتاب الله فصارت مقالة يُعرف أهلها بالسبئية[3].

وإذا كان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يتشدد فى الحديث ويتوعد عليه ، والزمان زمان والصحابة متوافرون ، والبدع لم تظهر ، والناس فى القرن الذى أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما ظنك بالحال فى الأزمنة التى ذمها وقد كثرت البدع وقلت الأمانة .

(١) فى ط : من غير .

(٢) هكذا بالأصل ، وفى ب و ط فلما أخبر بقتله وموته .

(٣) فى ط زيادة : ويقال إنه قال : على هو إله ، وأنه يحيي الموتى ، وإنما غاب ولم يمت .

وللبخارى[1] ـ رحمه الله ـ فى هذا الباب عناء مشكور وسعى مبرور ، وكذلك لمسلم[2] وابن مَعِين[3] ، فإنهم انتقدوا الحديث وحرّروه ، ونبهوا على ضعفاء المحدثين والمتهمين بالكذب حتى ضج من ذلك من كان فى عصرهم ، وكان ذلك أحد الأسباب التى أوغرت صدور الفقهاء على البخارى ، فلم يزالوا يرصدون له المكاره

---

(١) فى ط زيادة (أبى عبد الله) والبخارى : حبر الإسلام ، وحافظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخارى ، ولد فى بخارى ، ونشأ يتيما ، وقام برحلة سنة ٢١٠ هـ فى طلب الحديث ، فزار خراسان ، والعراق ومصر والشام ، وسمع من نحو ألف شيخ ، وجمع ستمائة ألف حديث وهو صاحب الجامع الصحيح ، ورجع إلى بخارى ، وأقام بها فتعصب عليه جماعة ورموه بالتهم . توفى سنة ٢٥٦ هـ . تاريخ بغداد ٢ـ٤ . تذكرة الحفاظ ٢ـ١٢٢ .

(٢) مسلم هو أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم ، ولد بنيسابور ، ورحل فى طلب الحديث إلى الحجاز ومصر والشام والعراق ، وتوفى بظاهر نيسابور سنة ٢٦١ هـ . وهو حافظ من أئمة المحدثين أشهر كتبه صحيح مسلم جمع تقريباً اثنى عشر ألف حديث ، ومن كتبه : المسند الكبير وأوهام المحدثين . والطبقات .

(انظر تذكرة الحفاظ ٢ـ١٥٠ . وفيات الأعيان ٢ـ٩١ . تاريخ بغداد ١٣ـ١٠٠) .

(٣) فى ط ولابن معين . وهو يحيى بن معين بن زياد البغدادى من أئمة الحديث قال عنه الذهبى : سيد الحفاظ . وقال عنه الإمام أحمد : كان أعلمنا بالرجال . خلف له أبوه ثروة كبيرة أنفقها فى طلب الحديث ولد بقرية قرب الأنبار وتوفى بالمدينة سنة ٢٣٣ هـ

(وفيات الأعيان ٢ـ٢١٤ . طبقات الحنابلة ص ٢٦٨) .

حتّى أمكنتهم فيه فرصة بكلمة قالها فكفّروه ، وامتحنوه وطردوهُ من موضع إلى موضع ، وحتّى حَمَل بعضَ الناس قَلَقُهُ من ذلك على أن قال :

ولابْن مَعين فى الرجال مقالَـةٌ
سَيُسْأَلُ عنها والمليكُ شهيدُ
فـإن يكُ حَقًّا قولُه فَهُو غيبةُ
وإن يكُ زورًا فالعقابُ شَديدُ

وَمَا أَخْلَقَ قائل هذا الشعر بأن يكون دفع مغرما ، [وأَسَرَّ حَسْوًا فى ارتغاء][1] ، لأَنّ ابن معين فيما فعل أجدرُ بأَنْ يكون مأجوراً [من أن يكون موزوراً][2] . وألا يكون فى ذلك ملوما ، بل مشكورًا

---

(١) (أسر حسوا فى ارتغاء) . هذا مثل يضرب لمن يظهر أمراً . وهو يريد غيره « وفى التهذيب : يضرب مثلا لمن يظهر طلب القليل ، وهو يسر أخذ الكثير » ارتغى الرغوة أخذها واحتساها . والحسو الشرب (اللسان رغا ، حسا) .

(٢) ما بين القوسين ساقط من ط

وهى نقل الحديث على المعنى دون لفظ [1] المحدِّث بعينه . وهذا الباب يعظم الغلط فيه جدًّا ، وقد نشأت منه بين الناس شُغُوبٌ [2] شنيعة ، وذلك [3] أن أكثر المحدثين لا يراعون ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم التى نطق بها ، وإنما ينقلون إلى من بعدهم معنى ما أراد بألفاظ أُخَرَ [4] . ولذلك نجد الحديث الواحد فى المعنى الواحد يرد بألفاظ شتى ، ولغات مختلفة يزيد بعض ألفاظها على بعض ، على أن اختلاف ألفاظ الحديث قد يعرض من أجل تكرير النبي صلى الله عليه وسلم [له [5]] فى مجالس مختلفة [6] ، وما كان من الحديث بهذه الصفة فليس كلامنا فيه ، وإنما كلامنا فى اختلاف الألفاظ الذى [7] يعرض من أجل نقل الحديث على المعنى .

---

(١) فى ط : دون اللفظ .

(٢) شغوب : جمع شغب . وهو إثارة الشر وتهييج الفتن .

(٣) فى ط : وذاك .

(٤) فى ط : أخرى .

(٥) ساقطة من ط .

(٦) فى ط مجالس عدة مختلفة .

(٧) هكذا فى ب . وفى ا التى .

ووجه الغلط الواقع من هذه الجهة أن الناس يتفاضلون في قرائحهم وأفهامهم كما يتفاضلون في صورهم وألوانهم وغير ذلك من أمورهم وأحوالهم فربما اتفق أن يسمع الرواة[1] الحديث من النبي صلى الله عليه وسلم ، أو من غيره فيتصور معناه في نفسه على غير الجهة التي أرادها .

فإذا[2] عبر عن ذلك المعنى الذي تصور في نفسه بألفاظ أخر كان قد حدَّث بخلاف ما سمع عن[3] غير قصد منه إلى ذلك .

وذلك أن الكلام الواحد قد يحتمل معنيين وثلاثة ، وقد تكون فيه اللفظة المشتركة التي تقع على الشيء وضده ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « قُصُّوا الشَّوارب وأَعْفُوا اللِّحَى »[4] .

---

(١) في ط : الراوى .

(٢) في ط : وإذ .

(٣) في ط : (من غير) .

(٤) رواه أحمد عن أبي هريرة ، ورواه البخارى عن ابن عمر في باب اللباس بلفظ (انهكوا الشارب وأعفوا اللحى . وفي رواية ابن عمر خالفوا المشركين وفروا اللحى واحفوا الشوارب) .

فقوله : أعفوا . يحتمل أن يريد [به[1]] كثروا ، وَوَفِّروا ، ويحتمل أن يريد : خففوا[2] ، وقللوا ، فلا يفهم مراده من ذلك إلا بدليل من لفظ آخر ، والمعنيان جميعاً موجودان فى كلام العرب :

يقال : عفاوبر الناقة إذا كثر ، وكذلك لحمها . قال الله عز وجل : [حتَّى عَفَوْا [3]] أى كثروا ، وقال جرير :

ولكنا نُعض السيفَ منها بأَسْئق
عافيـــاتِ اللحم كـــوم [4]

ويقال : عفا المنزل : إذا درس . قال زهير :

عفا من آل فاطمة الجواء[5].

---

(١) زيادة فى ب و ط .

(٢) فى ب قللوا وخففوا وكذا فى ط .

(٣) الأعراف : ٩٥ . والآية :(ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) .

(٤) سبق شرح هذا البيت .

(٥) هذا صدر بيت عجزه (فيمن فالقوادم فالحساء) .

عفا درس . والجواء : ركمن . والقوادم والحساء : مواضع ببلاد غطفان (الديوان ص ٧ ط بيروت)

فنى مثل هذا يجوز أن يذهب النبى صلى الله عليه وسلم إلى المعنى الواحد ويذهب الراوى عنه إلى المعنى الآخر ، فإذا أدى معنى ما سمع دون لفظه بعينه كان قد روى عنه ضد ما أراده غيرَ عامد .

ولو أدى لفظه بعينه لأوشك أن يفهم منه الآخر ما لم يفهمه الأول .

وقد علم[1] صلى الله عليه وسلم ، أن هذا سيعرض بعده . فقال محذرا من ذلك (نضَّر الله امرأً سمع مقالتى فوعاها ، وأداها كما سمعها ، فرب مُبَلَّغٍ أَوْعَى من مُبَلِّغ)[2] .

ومن نحو هذا ما روى عنه صلى الله عليه وسلم (أن رجلا أتاه فقال : أيجوز إتيان المرأة فى دبرها ؟ فقال : نعم . فلما أدبر الرجل قال : ردوه على : فلما رجع قال :

---

(١) فى ب زيادة (النبى) .

(٢) فى مسند أحمد ١-٤٣٧ نضر الله امرأ سمع حديثا فحفظه حتى يبلغه ، فرب مبلغ أوعى من سامع . وفى رواية : نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ، ثم أداها إلى من لم يسمعها ، فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . وانظر سنن أبى داود باب العلم .

فى أى الخُرْطَتَين[1] أردت ؟ أما من دبرها فى قبلها فنعم ، وأما من دبرها فى دبرها فَلا[2].

وقد غلط قوم فى حديث عائشة – رضى الله عنها – فى هذا المعنى : (إذا حاضت المرأة حرم الجُحْرَان)[3].

فتوهموا أن هذا الكلام ينفك منه جواز الأتيان فى الدبر . وهذا غلط شديد ممن تأوله .

وقد رواه بعضهم الجحرانُ بضم النون ، وزعم أن الجحران : الفرج ذكر ذلك ابنُ قتيبة[4].

---

(١) فى ط : فى أى الخربتين . والخربة بضم الخاء وسكون الراء كل ثقب مستدير . وثقب الأست .

(٢) هذا الحديث معناه صحيح وورد بألفاظ مختلفة ومنه حديث الترمذى عن حفصة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك فقال لا بأس إن كان فى صمام واحد وعن ابن عباس قال رسول الله : أقبل وأدبر . واتق الدبر والحيضة . رواه أحمد والترمذى تفسير ابن كثير ١-٢٦٠.

(٣) لم نعثر على هذا الحديث فى كتب الصحاح وهو فى النهاية لابن الأثير، روايتين ضم النون على أنه اسم مفرد بمعنى الجحر بزيادة الألف والنون تمييزا له عن غيره من الجحرة . ورواه الزمخشرى فى الفائق فى غريب الحديث بضم النون وكسرها على أنه مثنى . النهاية لابن الأثير ١–٢٤٠ . الفائق ١–١٧١ .

(٣) ابن قتيبة هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى . إمام فى اللغة والأدب . ومن المصنفين المكثرين ، ولد ببغداد وتوفى بها سنة ٢٧٦هـ وقيل ٢٩٦ هـ . ومن كتبه : أدب الكاتب ، وعيون الأخبار ، والشعر والشعراء (انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ١٨٣ دائرة المعارف الإسلامية ١–٢٦٠ . وفيات الأعيان ٤–٢٨٠) .

والرواية الأُولى هى المشهورة ، وليس فى الحديث شىء مما توهموه ، وإنما كان يلزم ماقالوه لو كانت الطهارة من المحيض شرطاً فى جواز إتيان المرأة فى جحريها معاً فكان يلزم عند ذلك أن يكون ارتفاع الطهارة سبباً فى تحريمهما معاً ، كما كان شرطاً فى تحليلهما[1] معاً . فإذا لم يجدوا سبيلاً إلى تصحيح هذه الدعوى لم يلزم ما قالوه ، وإنما المعنى فى حديث عائشة أن فرج المرأة يخالف دبرها فى إباحة أحدهما ، وتحريم الآخر . والإباحة التى خالفت بينهما معلقة بشرط الطهارة من المحيض. [فإذا لم يقع[2]] شرط الطهارة [من المحيض][3] ارتفعت الإباحة التى كانت ملعقة به فاستويا معاً فى التحريم لارتفاع السبب الذى فرق بينهما ، وهذا كقول قائل [لو قال[4]] : إذا أسكر النبيذ حرم الشرابان يريد الخمر والنبيذ أى استويا فى

(١) هكذا فى ب ، ط . وفى الأصل . لتحريمها وتحليلها وهو خلاف الصواب .

(٢) فى ب فإذا ارتفع وكذا ط .

(٣) ساقط من ط .

(٤) ساقط من ب .

التحريم . لأن النبيذ إنما خالف الخمر بشرط عدم الاسكار ، فلما ذهب السبب ، والشرط الذى فرق بينهما تساويا معاً فى التحريم . فكما أن هذا القول لا يلزم منه إباحة الخمر قبل وجود الإسكار فى النبيذ فكذلك قول عائشة – رضى الله عنها – لا يلزم منه إباحة نكاح الدبر قبل وجود الحيض فى الفرج ، ونظير هذا [أيضا[1]] لو أن رجلا كان معه ثوبان . أحدهما فيه نجاسة [تحرم عليه الصلاة به][2]. والآخر طاهر تجوز له الصلاة به ، ثم أصابت الثانى نجاسة فقال له قائل قد حرمت عليك الصلاة بالثوبين ، إنما أراد أن الثوب الثانى قد صار مثل [الثوب[3]] الأول فى التحريم ، لعدم الشرط المفرق بينهما .

وقد جاء فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم ما ينحو نحو هذا ، وإن لم يكن مثله من جميع الوجوه ، وذلك ما روى عنه من قوله : « من سره أن يذهب كثير من

---

(١) ساقط من الأصل .

(٢) ما بين القوسين زيادة فى ب و ط .

(٣) زيادة فى ب و ط .

وَحَرِ صدره ، فليصم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر »[١] .

يريد بشهر الصبر : رمضان ، وليس المراد أن شهر الصبر مباح الأكل فيه لمن لم يسره ذهاب وَحَرِ صدره . وإنما معناه فليضف إلى شهر الصبر الواجب صومه على كل حال ثلاثة أيام يصومها من كل شهر .

ومن طريف[٢] الغلط الواقع فى اشتراك الألفاظ ما روى من أن النبى صلى الله عليه وسلم وهب لعلى - رضى الله عنه - عِمَامَةً تسمى السحاب ، فاجتاز على[٣] متعمما بها ، فقال عليه السلام : لمن كان معه [أما رأيتم[٤]] عليا فى السحاب ؟ أو نحو هذا من اللفظ ، فسمعه بعض المتشيعين لعلى ، فظن أنه يريد السحاب[٥] المعروفة ، فكان ذلك سببا لاعتقاد الشيعة أن عليا فى السحاب[٦] ،

---

(١) ورد فى مسند الإمام أحمد ٥-٧٨ ودحر الصدر ما فيه من حقد وغيظ

(٢) فى ط : ظريف .

(٣) فى ط : رضى الله عنه .

(٤) هكذا فى ب وفى الأصل بحذف همزة الاستفهام . وفى ط : أرأيتم ؟ .

(٥) فى ط : السحابة .

(٦) فى ط : زيادة (إلى يومنا (هذا) .

ولذلك قال اسحاق[1] بن سُوَيد الفقيه :

بريتُ من الخَوارِج لَسْتُ منهمُ
من الغَزَّالِ منهم وابن بابِ[2]
ومن قوم إذا ذكروا عليا
يَرُدُّونَ السلامَ على السحاب
ولكنى أُحب بكل قلبى
وأعلم أن ذاك من الصواب
رسولَ الله والصديقَ حُباً
به أرجو غدا حسن الثواب

وقد جعل بعض[3] العلماء من هذا الباب الحديث المرويَّ : خُلِقَ آدم على صورة الرحمن[4] ، قالوا :

---

(١) اسحاق بن سويد بن هبيرة العدوى التميمى . روى عن ابن عمر ، وابن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، ومعاذة صاحبة عائشة رضى الله عنها ، وهو محدث ثقة روى له البخارى توفى سنة ١٣١ هـ
(وفيات الأعيان ١ ـ ١٨١ . تهذيب التهذيب ١ ـ ٢٣٦) .

(٢) الغزال : واصل بن عطاء أحد رءوس المعتزلة . وابن باب : عمرو ابن عبيد . زعيم من زعماء المعتزلة .
(الفرق بين الفرق ١١٩ الكامل للمبرد ٣ ـ ١٩١) .

(٣) كلمة بعض ساقطة من ط .

(٤) عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن .
(الأسماء والصفات ص ٢٩١) .

وإنما قال صلى الله عليه وسلم: «خلق الله آدم على صورته»[1] والهاء راجعة إلى آدم ، فتوهم بعض السامعين أنها عائدة على الله . فَنَقَله على المعنى دون اللفظ ، وهذا الذى قالوه لا يلزم ، وسنتكلم على هذا الحديث إذا انتهينا إلى موضعه من هذا الباب بعينه إن شاء الله . [فهذه أمثلة من هذا النوع تنبه على بقيته إن شاء الله تعالى][2].

العلة الثالثة

وهى الجهل بالإعراب ، ومبانى[3] كلام العرب ومجازاتها وذلك أن كثيرا من رواة الحديث قوم جُهَّال باللسان العربى ، لا يفرقون[4] بين المرفوع والمنصوب والمخفوض ، ولعمرى لو أن العرب [وضعت لكل معنى[5] لفظا] يُؤدى عنه لا يلتبس بغيره لكان لهم عذر فى ترك تعلم

---

(١) ورد فى مسلم باب الجنة والنار ٨-١٤٩ . وفى البخارى باب الاستئذان . ومسند أحمد بلفظ : إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه . فإن الله خلق آدم على صورته (٢-٢٤٤) وفى رواية : ولا تقل قبح الله . وجهك ووجه من أشبه وجهك فإنه تعالى خلق آدم على صورته (٢-٢٥١) وفى (٢-٣١٥) رواه برواية مسلم .

(٢) مابين القوسين زيادة فى ط .

(٣) فى ط : معانى .

(٤) هكذا فى ب . وفى الأصل لا يفرق .

(٥) عبارة ب (وضعت كل معنى لفظا) . وهو تحريف .

الإعراب . ولم تكن [لهم[1]]حاجة إليه فى معرفة الخطإ من الصواب .

ولكن العرب قد تُفَرِّقُ بين المعنيين المتضادين بالحركات فقط ، واللفظ واحد[2]. ألا ترى أن الفاعل والمفعول ليس بينهما أكثر من الرفع والنصب ، فربما حدَّث المحدِّث بالحديث فرفع لفظةً منه ينوى بها أنها فاعلة ؛ ونصب أخرى ينوى بها أنها مفعولة ، فنقل عنه السامع ذلك الحديث ، فرفع ما نصب ، ونصب مارفع جهلا منه بما بين الأمرين فانعكس المعنى إلى ضد ما أراده المحدث الأول . ألا ترى أن قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يُقْتَلُ قُرَيْشِيٌّ صبراً بعد اليوم »[3]. إذا جُزِمَتْ اللام من يقتل كان له معنىً ، وإذا رفعت كان له معنى آخر .

---

(١) فى ط : بهم .

(٢) من ذلك قولهم رجل ضحكة بضم الضاد وفتح الحاء أى يضحك على الناس كثيراً مبالغة فى اسم الفاعل . ورجل ضحكة بضم الضاد وسكون الحاء أى يضحك الناس عليه فهو مضحوك عليه كثيراً مبالغة فى اسم المفعول .

(٣) (صحيح مسلم باب الجهاد ٥-١٧٣) رواه الشعبي عن عبد الله ابن مطيع عن أبيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم فتح مكة : لا يقتل قرشى صبرا بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة .

ولو أن قارئا قرأ : « هو الأَوَّلُ والآخَرُ »[1]. ففتح الخاء لكان قد كفر وأشرك بالله تعالى ، وإذا كَسَرَ الخاء آمن ووحّد[2] ، فليس بين الإيمان والكفر غير[3] حركة.

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : رحمَ اللهُ امْرأً أصلَحَ مِنْ لِسانِه[4].

وقال أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب – رضى الله عنه : « تعلموا الفرائض والسنة واللحن كما تَعَلَّمُونَ القرآن»[5] واللحنُ : اللغة . قال الشاعر :

وما هاج هذا الشوق إلا حمامة
تبكت على خضراء سُمْرٍ قُيودُهـا
صَدُوحُ الضبحَى معروفة اللحن لم تزل
تقود الهوى من مُسعدٍ ويقودها[6]

---

(١) الحديد : آية ٣ .

(٢) وذلك لأن الآخر بكسر الخاء معناها الذى ليس شىء بعده فليس له نهاية . أما الآخر بفتح الخاء فمعناها المغاير . فتستدعى مغايرا كأن هناك إلاها غيره تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

(٣) فى ب (إلا) بدل غير .

(٤) لم نعثر على هذا الحديث بهذا اللفظ فى الصحاح

(٥) الدارمى : الفرائض (٢-٢٤٧ النهاية ٤-٢٤١) .

(٦) قائل هذا : على بن عميرة الجرمى . وفى رواية الأمالى والأغانى :

وكذلك قوله تعالى : « هو الله الخالق البارئُ المصوِّرُ » ليس بين الإيمان والكفر فيه غير فتح الواو وكسرها .

وكذلك قوله تعالى : [وَيلٌ يومئذ لِلْمكذِّبين][1]

ولو أن رجلين تقدما إلى حَكَم يدَّعى أحدُهمَا على صاحبه بثوب ، فَقَرَّره الحكَمُ على ذلك ، فإنه إنْ قال : ما أخذتُ له ثوبٌ . بالرفع[2] أقرَّ بالثوب على نفسه ، ولزمه إحضار ثوب[3] . وإن قال ما أخذت له ثوباً فنصب لم يُقِرَّ بشيء ، ولزمته اليمين إن لم تَقُم عليه به بينة .

تغنت بدل تبكت. ويروى سمر بالرفع صفة لحمامة، وفيه إشارة إلى ما يكون فى مخالب الحمام أو مواضع القيد منها من هذا اللون ويروى سمر بالجر فقيل صفة لحمامة بالجر على الجوار لخضراء ، وقيل صفة لخضراء . ويعنى بها الشجرة . وقيودها : أصولها . ويقال للمعين على العشق : مسعد كما يقال للمعين على العيش مساعد . يريد : تقود هوى مسعدها ، ويقودها مسعدها .

(الأمالى ١-٥ . سمط اللآلى ١-١٩) .

(١) المرسلات : ١٥ مكررة .

(٢) فى ط : فرفع .

(٣) لأن (له ثوب) جملة مثبتة مستقلة مستأنفة وإن نصب صارت العبارة كلها جملة واحدة مسلطا عليها النفى .

وكذلك [إن[1]] قال رجل لامرأته : أنت طالق إن دخلت الدار . فإنه إن فتح الهمزة طَلَقَت عليه فى ذلك الوقت دون تأخير[2].

وإن كسر الهمزةَ لم تُطَلَّقْ عليه ذلك[3] الوقت ، وإنما تُطَلَّق عليه فيما يُسْتقبلُ إن كان منها دخول للدار .

ويروى أن الكسائىَّ كُتِبَ إليه : ما تقول فى رجل قال :

فإن ترفُقِى يا هند فالرفقُ أَيْمَنُ
وإن تَخْرُقى ياهند فالخُرقُ أَشْأَمُ
فأَنت طلاق – والطلاق عزيمة
ثلاثٌ ومن يَخرُق أَعَقُّ وأَظلَمُ[4]

---

(١) فى ب و ط .(لو) .

(٢) لأنه لا تعليق لأن أن مصدرية والمصدر المؤول علة للطلاق أى لدخولك الدار .

(٣) فى ط : فى ذلك .

(٤) الرفق : ضد العنف . أيمن من اليمن وهو البركة – الخرق بضم الخاء وسكون الراء . الحمق وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمر . أشأم من الشؤم ضد اليمن .
(انظر خزانة الأدب ٢-٦٩ ، ٧٥ شرح شواهد المغنى ص ١٦٨) :

فقال الكسائى : إن كان رفع العزيمة ونصب الثلاث ، فهى ثلاث تطليقات .

وإن كان نصب العزيمة ورفع الثلاث فهى واحدة .

يريد أنه إذا رفع العزيمة ونصب الثلاث صار التقدير ، فأنت طلاقٌ ثلاثا ، والطلاق عزيمة على التقديم والتأخير .

وإذا نصب العزيمة ورفع الثلاث لم ينو بثلاث التقديم ، وصار التقدير فأنت طلاق ، وتم الكلام ، ثم قال : والطلاق فى حال عزيمة المطلّق عليه ثلاث ، فلم يكن فى هذا الكلام ما يدل على أن هذا المطلق عَزَم على الثلاث ، فقضى عليه بواحدة وقد يمكن أيضاً أن تُرْفَعَ العزيمة[1] والثلاثُ معًا ، ويكون[2] التقدير :

فأنت طلاق[3] ثلاث ، والطلاق عزيمة ، فيلزم ... ذلك ثلاث تطليقات . [والله أعلم[4]] .

---

(١) فى ط : أن ترفع الثلاث والعزيمة بالتقديم والتأخير

(٢) فى ط : فيكون

(٣) فى ط : طالق .

(٤) زيادة فى ط .

وهى التصحيف .

وهذا أيضاً باب عظيم الفساد فى الحديث جداً : وذلك أن كثيراً من المحدِّثين لا يضبطون الحروفَ ، ولكنهم يُرْسِلونها إرسالا غير مُقَيَّدة ولا مُثَقَّفَة اتكالا على الحفظ ، فإذا غَفَل المحدِّثُ عما كتب مدةً من زمانه ، ثم احتاج إلى قراءة ما كتب ، أو قرأه غيره ، فربما رَفع المنصوب ، ونصب المرفوع – كما قلنا – فانقلبت المعانى إلى أضدادها ، ورُبَّما تَصَحَّفَ له الحرفُ بحرف آخر لعدم الضبط فيه فانعكس المعنى إلى نقيض المراد به

وذلك أن هذا الخط العربى شديد الاشتباه ، وربما لم يكن بين المعنيين المتضادين غير الحركة أو النقطة . كقولهم : مُكرِم بكسر الراء . إذا كان فاعلا ، ومُكرَم بفتح الراء إذا كان مفعولا

ورجل أفرعُ بالفاء إذا كان تام الشعر ، وأقرعُ بالقاف : لا شعر فى رأسه .

وفى الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرعَ[1] .

وقد جاءت[2] من هذا الباب أشياءُ [طريفة[3]] عن المحدِّثين نحو ما روى[4] عن يزيد بن هارون أنه روى : كنا جلوساً حول بشر بن معاوية . وإنما هو : « حول سرير معاوية » وكما روى عبد الرزاق : تقاتلون خُورَ كِرْمان . وإنما خوز بالزاى معجمة[5] .

وكما صحَّف شُعْبَة التِّلبَّ العَنْبَرِىَّ فرواه بثاءٍ مثلثة مكسورة ولام ساكنة ، وإنما هو التلب بتاءٍ معجمة باثنتين

(١) فى النهاية لابن الأثير ٣-١٩٦ . وفى حديث عمر قيل له الفرعان أفضل أم الصلعان ؟ فقال : الفرعان . قيل فأنت أصلع . قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرع . والفرعان : جمع الأفرع . وفى اللسان مادة فرع ، وكان رسول الله صلى اه عليه وسلم أفرع ذا جمة . من فرع الرجل فرعا إذا كثر شعره . ولا يقال لعظيم اللحية والجمة أفرع . إنما يقال لضد الأصلع .

(٢) فى ب جاء دون تاء .

(٣) فى ط (ظريفة) وهى تحريف .

(٤) فى ط : ما يروى .

(٥) الخوز : جيل من الناس أعجمى معرب يقول فى اللسان : وخوز بالزاى ويروى بالراو وصوبه الدارقطنى (اللسان خور — خوز) =

وكسر التاء واللام ، وتشديد الباء على وزن طِمِرّ .
ويدل عليه قول الشاعر :

إن التَّلِبَّ له عرسٌ يمانيـــــة
كأَن فَسْوَتَها فى البيت إعْصَـارُ

وروى بعضهم : أُدْخِلْتُ الجنة فرأيتُ فيها حبائل اللؤلؤ ، ولا وجه للحبائل ههنا . لأَن الحبائل عند العرب الشباك التى يصاد بها الوحش واحدتها حِبالة . ومن كلام العرب : [خَشّ ذُؤَالة بالحبالة][1] ، وإنما هو جنابذ اللؤلؤ[2] ، والجنابذ جمع جُنْبُذَة وهى القُبَّةُ

= ويقول ياقوت فى معجم البلدان : خوز بالزاى بلاد خوزستان وأهل تلك البلاد يقال لهم الخوز . وهم ألأم الناس وأسقطهم (٢-٤٠٤)

(١) ما بين القوسين ساقط من ط ... ومن كلام العرب خش ذؤالة بالحبالة . خش: فعل أمر من خشيته إذا خوفته . وذؤالة : علم جنس للذئب فهو معرفة ممنوع من الصرف . والحبالة مايصاد به من الشباك . ومعناه : قعقع ترهب (اللسان : ذال) .

(٢) ورد فى البخارى فى صفة الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ « قال ابن الأثير هكذا جاء فى كتاب البخارى والمعروف : جنابذ اللؤلؤ ، فإن صحت رواية البخارى فيكون أراد به مواضع مرتفعة كحبال الرمل كأنه =

وهذا النوع كثير جداً . قد وضع فيه الدارقطني[1] كتابا مشهوراً سماه تصحيف الحفاظ .

ومن طريف ما وقع [منه[2]] فى كتاب مسلم ومسنده الصحيح : (نحن يوم القيامة على كذا أنظر)[3] .

وهذا شيء لا يتحصل له معنى ، وهكذا تجده فى أكثر النسخ . وإنما هو نحن يوم القيامة على كَوم . والكَوم جمع كَوْمَة ، وهو المكان المشْرِفُ . فصحفه بعض النقلة فكتب : نحن يوم القيامة على كذا ، فقرأ من قرأ فلم يفهم ما هو . فكتب فى طرة الكتاب : [انظر[4]] يَأْمُرُ قارئَ الكتاب بالنظر فيه ، فوجده ثالث فظنه فألحقه بمتنه .

جمع حبالة . وحبالة جمع حبل وفى اللسان مادة جنبذ : الجنبذة بالضم ما ارتفع من الشيء واستدار كالقبة وقال ابن الأعرابى : الجنبذة : القبة ، وفى صفة الجنة : وسطها جنابذ من ذهب وفضة يسكنها قوم من أهل الجنة كالأعراب فى البادية . وورد فى حديث آخر فيها جنابذ من لؤلؤ .

(١) الدارقطنى هو أبو الحسن على بن عمر بن أحمد البغدادى كان عالما حافظا فقيها على مذهب الإمام الشافعى . صنف كتاب السنن ، والمختلف والمؤتلف توفى سنة ٣٨٥ هـ . وفيات الأعيان ٣-٢٩٧ .

(٢) ساقطة فى ب .

(٣) الحديث (نحن يوم القيامة على كوم) رواه مسلم وحديثه فيه تحريف . ضبطها ابن الأثير بفتح الكاف . وقال فى الدر المنثور هو بفتح الكاف المواضع المشرفة واحدها كومة . النهاية ٤-٣٨ .

(٤) فى ب (أنظر ما هو) .

وهى إسقاط شىء من الحديث لا يتم المعنى إلا به . وهذا النوع أيضا قد وردت منه أشياءُ كثيرة فى الحديث كنحو ما رواه قوم عن ابن مسعود [أنه سئل عن ليلة الجن فقال : ما شهدها منا أحد][1] .

وروى عنه من طريق آخر « أنه رأى قوما من الزُّطِ ، فقال : هؤلاء أشبه من رأيت بالجن ليلة الجن » فهذا الحديث يدل على أنه شهدها ، والأول يدل على

---

(١) الذى ورد فى مسلم فى باب الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة للجن ٢-٣٦ وفى البخارى فى مناقب الصحابة . عن داود قال : سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ليلة الجن ؟ فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت هل كان أحد منكم مع رسول الله ليلة الجن . قال : لا . وهذا صريح فى أنه لم يكن أحد مع رسول الله . وفى رواية أخرى قال : لم أكن ليلة الجن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووددت أنى كنت معه .

وفى مسند الإمام أحمد ١-٢٩٨ . عن ابن عباس عن ابن مسعود أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن . وعن أبى رافع عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن خط حوله ، فكان يجئ أحدهم مثل سواد النخلة . وقال لى : لا تبرح مكانك فاقرأهم كتاب الله عز وجل . فلما رأى الزط قال : كأنهم هؤلاء (انظر المسند ١-٤٤٩ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨) .

أنه لم يشْهدها . فالحديثان كما ترى متعارضان ، وإنما أَوجب التعارض بينهما أَن الذى روى الحديث الأَول أَسقط منه كلمة رواها غيره ، وإنما الحديث (ماشهدها منا أُحد غيرى) .

العلة السادسة

وهى أن ينقل المحدث الحديث ، [ويُغْفلَ السبب][1] الموجب له فيعرض من ذلك إشكال فى الحديث ،أَو معارضة لحديث آخر كنحو ما رواه قوم من أَن النبى صلى الله عليه وسلم أُتِىَ العُرَنيِّين الذين ارتدوا عن الإسلام ، وأَغاروا على لقاحه فأَمر بقطع أَيديهم وأَرجلهم ،وسَمْل عيونهم وتُرِكُوابالحَرَّةِ يَسْتَسْقُون فلا يُسْقَوْن[2] حتى ماتوا.

(١) فى ب (أو يغفل) بدل الواو وهو تحريف .

(٢) روى الأئمة — واللفظ لأبى داود — عن أنس بن مالك أن قوما من عكل . أو عرينة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتووا المدينة (أى أصابهم الجوى وهو المرض وداء الجوف . وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها ، واستوخموها) فأمر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بلقاح ، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ، فانطلقوا . فلما صحوا . قتلوا راعى النبى صلى الله عليه وسلم ، واستاقوا النعم ، فبلغ النبىَ خبرهم فى أول النهار ، فأرسل فى آثارهم . فما ارتفع النهار حتى جىء بهم ،فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمل عيونهم وألقوا فى الحرة يستسقون فلا يسقون . انظر القرطبى ٦-١٤٨ .

وقد وردت عنه الروايات من طرق شتى أنه نهى عن المُثْلَةِ ، وإنما عرض هذا التعارض من أجل أن الذى روى الحديث الأول أغفل نقل سببه الذى أوجبه ، ورواه غيره فقال : إنمافعل بهم ذلك لأنهم مَثَّلوا براعيه فجازاهم بمثل فعلهم .

ومن الفقهاء من يرى أن هذا كان فى أول الإسلام قبل أن تنزل الحدود ثم نسخ .

وقد ذهب بعض العلماء فى قولة صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم على صورته »[1] إلى أنه مما أغفل الناقل ذكر السبب الذى قاله من أجله – ورَوَوْا أن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يلطم وجه عبده وهو يقول : قبَّحَ الله وجهك ، ووجهَ مَنْ أشبهك . فقال صلى الله عليه وسلم : « إذا ضرب أحدكم عبده فليتق الوجه فإن الله تعالى خلق آدم على صورته». قالوا : فالهاء ترجع على العبد ، فلما روى الراوى الحديث ، وأغفل رواية السبب أو هم ظاهره أنها تعود على الله تعالى[2] – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – وهذا الذى قالوه ورَوَوْهُ غير معترض على رواية غيرهم من وجهين :

(١) سبق تخريج هذا الحديث . وبينا أنه ورد فى الصحاح .
(٢) فى ط زيادة (سبحانه) .

أحدهما : أنه قد جاء في حديث آخر : «خلق آدم على صورة الرحمن»(١) وجاء في حديث آخر : «رأيت ربي في أحسنِ صُورةٍ» . وهذا لا يسوغ معه شيء من الذي قالوه .

والثاني : أن الحديث له تأويل صحيح بخلاف ما ظنوه ، وقد تكلم فيه ابن قتيبة ولم يأت فيه بمقنع . [بل جاء بما لو سكت عنه لكان أجدى بما عليه](٢) .

وتكلم فيه ابن فُورَك(٣) فأحسن فيه كل الإحسان ، [ونحن نذكر ماقال](٤) بأوجز ما يمكن ؛ ونزيد ما يتمم ذلك بحول الله وقدرته . فنقول : إن الضمير في قوله على صورته يجوز أن يكون عائداً على آدم ، ويجوز أن يكون عائداً على الله تعالى . فإذا كان عائداً على آدم فالغرض من الحديث الرد على الدَّهْرِية واليهود

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) ما بين القوسين زيادة في ط . وابن قتيبة سبق الحديث عنه .

(٣) ابن فورك بضم الفاء وفتح الراء : محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني . واعظ عالم بالأصول ويعد من فقهاء الشافعية سمع بالبصرة . وحدث بنسابور . صنف ما يقرب من مائة مؤلف توفي سنة ٤٠٦ هـ

(وفيات الأعيان ١-٤٨٢ . النجوم الزاهرة ٤-٢٤٠ . الطبقات الكبرى ٣-٥٢) .

(٤) في ب : ونحن نذكر معنى ما قال .

والقدرية ، وهذا من جوامع كلمه التى أُوتيها صلى الله عليه وسلم .

فوجه الرد على الدهرية من وجهين :

أحدهما : أن الدهرية قالت : إن العالَم لا أول له ، وأنه لا يجوز أن يتكون حيوان إلا من حيوان آخر قبله ، فأعلمنا صلى الله عليه وسلم أن الله خلق آدم على صورته التى شوهد عليها ابتداء من غير أن يتكون فى رحم كما يتكون الجنين علقة ثم مضغة حتى يتم خلقه[1] .

والثانى : أن الدهرية تزعم أن للطبيعة والنفس الكلية فعلا فى المحدثات المكونة[2] غير فعل الله ـــ تعالى الله عن قولهم ـــ فأعلمنا أيضاً أن الله خلقه على هيئته التى كان عليها ، وانفرد بذلك دون مشاركة من طبيعة ولا نفس . ووجه الرد منه على اليهود . أن اليهود كانوا يزعمون أن آدم فى الدنيا كان على خلاف صورته فى الجنة ، وأن الله تعالى لما أهبطه من جنته نَقَصَ قامته ، وغيَّر

(١) فى ظ : حتى تم الخلقة .

(٢) فى ب و ظ (المتكونة) .

خلقته[1] فأعلمنا بكذبهم فيما يزعمون ، وأعلمنا أنه خلقه فى أول أمره على صورته التى كان عليها عند هبوطه

ووجه الرد [منه[2]] على القدرية . أن القدرية زعمت أن أفعال البشر مخلوقة لهم لا لله ـــ تعالى الله عن قولهم ـــ وهو نحو ما ذهب إليه الدهرية من أن للنفس والطبيعة أفعالا غير فعل الله تعالى . فأفادنا أيضاً بطلان قولهم ـــ وأعلمنا أن الله تعالى خلقه ، وخلق جميع أفعاله .

فهذا ما فى الهاء من القول إذا كانت عائدة[3] على آدم صلى الله عليه وسلم وإذا كانت عائدة على الله تعالى كانت إضافة صورة آدم إليه على وجه التشريف والتنويه ، والتخصيص ، لا على معنى آخر مما يسبق إليه[4] الوهم من معانى الإضافات ، فيكون كقولهم فى الكعبة إنها بيت الله ، وقد علمنا أن البيوت كلها له[5].

وكقوله : [وعِبادُ الرحْمن الذين يمشُونَ عَلَى الأَرْضِ

---

(١) فى ط خلقه .
(٢) ساقط من ط .
(٣) فى ب و ط (راجعة) .
(٤) فى ط : إلى الوهم .
(٥) فى ط : لله .

هوْنًا][1] . وقد علمنا أن جميع البشر من مؤمن وكافر عباده .

وإنما خصَّصَهُ بالإضافة إلى الله تعالى دون غيره لأن الله تعالى شرفه بما لم يشرف به غيره ، وذلك أنه عز وجل شرف الحيوان على الجماد ، وشرف الإنسان على سائر الحيوان[2] ، وشرف الأنبياء عليهم السلام على جميع نوع الإنسان ، وشرف آدم على جميع بنيه بأن خلقه دَفْعةً من غير ذكر وأُنثى[3] ، ودون أن ينتقل من النطفة إلى العلقة ، ومن العلقة إلى المضغة ، وسائر أحوال الإنسان التي يتصرف فيها إلى حين كماله ، ونسب خَلْقَه إلى نفسه دون سائر البشر ، فقال تعالى :

[لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ][4] ، [وَنَفَخْتُ فيه من رُوحِي][5] وأَسْجَدَ له ملائكته ولم يأمرهم بالسجود لغيره . فنبهنا

(١) الفرقان : ٦٣ .

(٢) فى ط : الحيوانات .

(٣) فى ط : ولا أنثى .

(٤) سورة ص : ٧٥ .

(٥) الحجر : ٢٩ الآية : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين

عليه السلام بإضافة صورته إلى الله تعالى على هذه المنزلة التى تفرد بها دون غيره .

ويَدُلُّكَ على صحة هذا التأويل قوله تعالى : [وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى [وقوله :] وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ] (١) ، وقوله : [لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ] (٢) فكما لا تدل إضافة هذه الأشياء إليه على أن له نَفْسًا ، وروحا ويَدَيْنِ (٣) فكذلك إضافته الصورة إليه لا تدل على أن له صورة . وقد يجوز فى إضافة الصورة إلى الله تعالى وجه فيه غموض ودقة ، وذلك أن العرب تستعمل الصورة على وجهين :

أحدهما : الصورة التى هى شكل مخطط ، [محدود بالجهات كقولك صورة زيد وصورة عمر] (٤) .

[والثانى: يريدون بها صفة الشىء الذى لا شكل له ولا تخطيط ، ولا جهات محدودة] (٥) كقولك : ما صورة

---

(١) المـائدة : ١١٦ .

(٢) سورة ص: ٧٥ . والآية هى: (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لمـا خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين) .

(٣) مذهب السلف أن له يدين لا يشبهان أيدى الحوادث .

(٤) ما بين القوسين فى ب ساقط من الأصل .

(٥) ما بين القوسين فى أ ساقط من ب .

أمرك ؟ ، وكيف كانت صورة قصتك ؟ يريدون بذلك الصفة .

فقد يجوز أن يكون مَعْنىَ خَلَق آدم على صورته : أى على صفته . فيكون مصروفا إلى المعنى الثانى الذى لا تحديد فيه .

فإن قلت فما معنى هذه الصفة ، ؟ وكيف تلخيص القول فيها ؟

فالجواب أن معنى ذلك أن الله جعله خليفة فى أرضه . وجعل له عقلا يعمل به[1] ويفكر ، ويسوس ، ويدبر وينهى[2] ويأمر ، وسلطه على جميع ما فى البَر ، والبحر[3] وسخر له ما فى السموات والأرض . وقد قال فى نحو هذا بعض المحْدَثين يمدح بعض خلفاء بنى أُمية :

أَمره من أَمـر من ملَّـكُه
فإذا ما شاءَ عافى وابتلى[4]

(١) فى ب و ط : يعلم به . وهو أنسب .
(٢) فى ط : ويأمر وينهى .
(٣) فى ب : البحر والبر .
(٤) هذا من الغلو فى المدح إلى درجة أن يضفى الشاعر صفات الخالق على ممدوحه .

فيكون معنى قولنا فى آدم أنه خلق على صورة الله تعالى كمعنى قولنا فيه إنه خليفة الله .

وهذه التأويلات كلها لا تقتضى تشبيها ، ولا تحديدا.

فإن قلت فكيف تصنع بالحديث المروىّ عنه صلى الله عليه وسلم « رأيت ربى فى أحسن صُورَة » . وهذا لا يمكنك فيه شيء من التأويل المتقدم ، ولا يصح لك حمله عليه ؟

فالجواب : أن هذا الحديث ورد بلفظ مشترك يحتمل معنيين :ـ

أحدهما : أن يكون قوله فى أحسن صُورة راجعاً إلى الرائى لا إلى المرئى ، وهو الله تعالى . فيكون معناه : رأيت ربى [وأنا فى أحسن صورة .

والثانى : أن يكون قوله[1] فى أحسن صورة راجعاً إلى المرئى وهو الله عز وجل فيكون] معناه : رأيت ربى على أحسن صفة فتكون الصورة بمعنى الصفة التى لا توجب تحديداً كما ذكرنا .

---

(١) ما بين القوسين فى ب وط ساقط فى ا .

وهذا فى العربية كقولك : رأيت زيدا فى الدار . فيجوز أن يكون قولك فى الدار لك كأنك قلت : رأيت زيداً وأنا فى الدار ، ويجوز أن يكون المعنى : رأيت زيدا وهو فى الدار ، وعلى هذا نقول : رأيت زيدا قائماً قاعداً ، ولقيت زيداً راكبين .

قال الشاعر :

فلئن لقيتك خَالِيَيْن لَتَعْلَمنْ
أَيِّى وأيك فارسُ الأَحزاب[1]

فإذا كان التقدير رأيت ربى وأنا فى أحسن صورة كان معناه أن الله تبارك وتعالى حَسَّنَ صورته ، ونقله إلى هيئة يمكنه[2] معها رؤيته ، إذ كان البشر لا يمكنهم رؤية الله تعالى على الصورة التى هم عليها حتى ينقلوا إلى صور أُخر غير صورهم ، ألا ترى أن المؤمنين يرون الله تعالى فى الآخرة ، ولا يرونه فى الدنيا ، لأن الله تعالى ينقلهم عن صفاتهم إلى صفات أُخر أعلى وأشرف ،

---

(١) هذا البيت من شواهد النحو ، وهو هنا شاهد على مجىء الحال (خاليين) من الفاعل والمفعول معاً ولم يعلم قائله .

(انظر شرح شواهد الألفية للعينى ٣-٤٢٢

(٢) فى الأصل يمكنها ، وفى ط ونقله إلى صفة بدل هيئة .

فعجّل الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم هذه الكرامة قبل يوم القيامة خصوصا دون البشر حتى رآه وشاهده ، والله يؤتى فضله من يشاء ، ويختص بكرامته من يريد[1].

وإذا كان ذلك راجعا على الله تعالى كان معناه : أنه رأى ربه على أحسن ما عوده من إنعامه وإحسانه ، وإكرامه ، وامتنانه كما تقول للرجل : كيف كانت صورة أمرك عند لقاء الملك ؟ فيقول : خير صورة . أعطانى وأنعم علىَّ ، وأدنانى من محل كرامته وأحسن إلىَّ .

فهذان تأويلان[2] صحيحان خارجان على أساليب كلام العرب دون تكلف . ولا خروج من مستعمل إلى تعسف[3] وقد جاء فى بعض الحديث : أنها كانت رؤية فى النوم ،

---

(١) فى ط زيادة (لا يسأل عما يفعل) .

(٢) هذه التأويلات التى ذهب إليها المؤلف لا يرتضيها السلف ، قال الإمام النووى : هذا الحديث من أحاديث الصفات ، ومذهب السلف أنه لا يتكلم فى معناه ، بل يقولون : يجب علينا أن نؤمن بها ، ونعتقد لها معنى يليق بجلالة الله تعالى ، مع اعتقادنا أنه ليس كمثله شىء .
الدرر السنية ٣-٣١٤ .

(٣) فى ط متعسف .

فإذا كان الأمر كذلك كان التأويل واضحا لأنه لا تنكر رؤية الله فى المنام [وبالله التوفيق][1].

العلة السابعة

وهى أن يسمع المحدث بعض الحديث ، ويفوته سماع بعضه كنحو ما روى من أن عائشة – رضى الله عنها : (أُخْبِرَتْ أَنَّ [أَبا هُرَيرة[2]] حَدَّثَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِن يكنْ الشُّؤم ففى ثلاث : الدار ، والمرأة والفرس »[3].

وهذا الحديث معارض لقوله عليه السلام : « لا عدْوى ، ولا هامَة ، ولا صفر ، ولا غُول »[4].

وقد روى عنه فى أحاديث كثيرة أنه نهى عن التَّطَيُّر

---

(١) زيادة فى ط :

(٢) فى ب (أبا هريرة أو ابن عمر) .

(٣) ورد الحديث بهذا اللفظ فى البخارى باب النكاح ٧-١٠ ، وابن ماجة ١-٦٤٢ ومسند الإمام أحمد ٥-٣٣٥ ، ٣٣٨ .

(٤) فى البخارى ومسلم : لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وكذلك فى ابن ماجة ٢-١١٧١ وزاد أحمد (وفر من المجذوم فرارك من الأسد) وفى رواية لأحمد ومسلم « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا غول » .

فغضبت عائشة . وقالت : والله ما قال هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، وإنما قال : « كان أهل الجاهلية يقولون : إن يكن الشؤم في ثلاث : (المرأة ، والدار ، والفرس[1]) .

فدخل [أبو هريره[2]] فسمع [آخر][3] الحديث ، ولم يسمع أوله .

وهذا غير منكر أن يعرض لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر في مجالسه الأخبار حكاية ، ويتكلم بما لا يريد به أمرا ، ولا نهيا ، ولا أن يجعله أصلا في دينه وشيئا يُسْتَنُّ به ، وذلك معلوم من فعله ، ومشهور من قوله .

المسألة الثامنة

وهي نقل الحديث من الصحف[4] دون لقاء الشيوخ ، والسماع من الأئمة

---

(١) عبارة ب (الدار والمرأة والفرس) .
(٢) في ب (ابن عمر) .
(٣) كلمة آخر ساقطة من ط .
(٤) في ط : المصحف .

وهذا أيضاً باب عظيم البلية والضرر فى الدين ، فإن كثيراً من الناس يتسامحون فيه جداً ، وأكثرهم إنما يعوِّل على إجازة الشيخ له دون لقائه والضبط عليه ، ثم يأخذ بعد ذلك من الصحف المسَوَّدَة ، والكتب التى لا يُعْلم صحتها[1] من سقمها ، وربما كانت مخالفة لرواية شيخه ، فيصحف الحروف ويبدِّلُ الألفاظ : وينسب جمع ذلك إلى شيخه ظالما له [وقد صار أكثر علم الناس][2] فى زماننا هذا على هذه الصفة ، ليس بأيديهم من العلم غير أسماء الكتب .

وإنما ذكرت لك هذه العلل العارضة للحديث لأنها أصول لنقادِ الحديث المهْتَبِلِين[3] بمعرفة صحيحه من سقيمه ، فإذا ورد عليهم حديث بشِيع[4] المسموع ، أو مخالف للمشهور نظروا أولا فى سنده . فإن وجدوا فى نقَلَتِه رجلا متهما ببعض تلك الوجوه التى ذكرناها استرابُوابه ولم يجعلوه أصلا يُعوَّل عليه .

---

(١) فى ط : بصحتها .

(٢) عبارة ب (وقد صار علم أكثر الناس) .

(٣) المهتبلين أى المهتمين من اهتبل الصيد . إذا بغاه وطلبه وفى ط المتلثين وهى تصحيف إذ لا معنى لها .

(٤) بشيع . هكذا ورد فى ا . ب بمعنى كريه والمسموع من العرب بشع

وإن وجدوا رجاله الناقلين له ثقات مشهورين بالعدالة معروفين بالعفة[1] والأمانة رجعوا إلى التأويل والنظر ، فإن وجدوا له تأويلا يحمل عليه قبلوه ولم ينكروه ، وإن لم يجدوا له تأويلا إلا على استكراه شديد نسبوه إلى غلط وقع فيه من بعض تلك الوجوه المتقدمة الذكر .

فهذه جملة القول فى هذا الباب [وبالله التوفيق][2] .

---

(١) بالعفة (هكذا فى ا ، ب) . وفى ط : بالفقه .

(٢) ما بين القوسين ساقط من ب .

الباب السادس

في الخلاف العارض من قبل الاجتهاد والقياس

هذا النوع إنما يكون فيما يعدم فيه وجود نص من القرآن أو حديث ، [فيفزع][1] الفقيه عند ذلك [إلى الاستعمال للقياس][2] ، والنظر كما قال الشاعر :

إذا أعيـــا الفقيه وجـــودُ نص
تعلــق لا محــــــالــة بالقياس

والخلاف العارض من هذا الموضع نوعان :

أحدهما : الخلاف الواقع بين المنكرين للاجتهاد والقياس[3] والمثبتين له .

والنوع الآخر : خلاف يعرض بين أصحاب القياس فى قياسهم كاختلاف المالكية والشافعية والحنفية ونحوهم. فيعرض من ذلك أنواع من الخلاف عظيمة ـ وهذا الباب أشهر من أن نطيل القول فيه .

---

(١) فى ط فيقرع وهو تحريف .
(٢) فى ب وط (إلى استعمال القياس) .
(٣) الذين أنكروا القياس الظاهرية وبعض العلماء ، ووجهة نظرهم . أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفارق الدنيا إلا بعد أن اكتمل الدين . وبين عليه السلام الشريعة بياناً واضحاً ، وترك لنا كتاب الله وسنته فيهما =

. . . .

ـــــبيان كل شيء،فلا حاجة للقياس مع أن الشارع أثبت أحكاما لا مجال للعقل فيها ، فكيف يتأتى القياس ؟

وقد ذم أصحاب رسول الله الرأى وكرهوا القياس ، ثم إن القياس ظن وحدس ، ولا يجوز إثبات الأحكام الشرعية بالظن والحدس .

أما المثبتون له فوجهة نظرهم : أن القياس يقوم على العلة ، والعلة يدل عليها النص أو الإجماع ، وهما دليلان قطعيان ، ثم إن الرسول عليه السلام أرشد إلى القياس ، وحدثت حوادث على عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حكموا فيها بالقياس ، ولم ينكر منهم أحد ذلك .

وترتب على هذا الاختلاف فى أمور كثيرة فمثلا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (فيما رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى) الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح مثلا بمثل يداً بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربا ، الآخذ والمعطى فيه سواء .

فالذين أنكروا القياس لا ربا عندهم فى الأرز ولا فى الحمص ولا فى الزبيب لأنه لم ينص عليها .

والذين يقولون بالقياس يلحقونها بما اشتركت معه فى علة الحكم .

الباب السابع

في الخلاف العارض من قبل النسخ

الخلاف العارض من هذا الموضع يتنوع أولا نوعين :

أحدها : خلاف عارض بين من أنكر النسخ ومن أثبته ، وإثباته هو الصحيح .

وجميع أهل السنة مثبتون له[1] ، وإنما خالف فى ذلك من لا يلتفت إلى خلافه لأنه بمنزلة دفع الضرورات وإنكار العيان .

والنوع الثانى : خلاف عارض بين القائلين بالنسخ ، وهذا النوع الثانى ينقسم ثلاثة أقسام :

أحدها : اختلافهم فى الأخبار[2] هل يجوز فيها النسخ كما يجوز فى الأمر والنهى أم لا ؟

---

(١) استدل المجوزون للنسخ بقول الله تعالى: **(يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)**. الرعد ٣٩ . قال ابن عباس وغيره : معناه : يمحو ما يشاء من أحكام كتابه فينسخه ببدل أو بغير بدل ، ويثبت ما يشاء فلا يمحوه ولا ينسخه . (الإيضاح للناسخ والمنسوخ لمكى ١٥٣) .

وقول الله تعالى : **(وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر)** . النحل : الآية ١٠١ . **(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)** البقرة : الآية ١٠٦ .

(٢) يرى جمهرة العلماء أن مما لا يجوز نسخه كل ما أخبرنا الله تعالى عنه أنه سيكون أو أنه كان ، أو قص علينا من أخبار الأمم الماضية وأخبار

والثانى [1] : اختلافهم هل يجـوز أن تنسخ السنة القرآن [2] أم لا ؟

والثالث : اختلافهم فى أشياء من القرآن والحديث.

يذهب بعضهم إلى أنها نسخت ، وبعضهم إلى أنها لم تنسخ [3]

الجنة والنار والحساب والعقاب والبعث والحشر وخلق السموات والأرضين لأنه يتعالى الله أن يخبر عن الشىء على غير ما هو به . (المصدر السابق ٥٦) .

(١) ساقط من ا موجود فى ب .

(٢) أجاز فريق من العلماء نسخ القرآن بالسنة المتواترة لأن الله يقول **(وما ينطق عن الهوى)** النجم ٣ : ويقـول : **(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)** الحشر : ٧ .

وقالوا إن قول الله تبارك وتعالى : **(كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين)** البقرة : ١٨٠ نسخ بحديث لا وصية لوارث .

وأنكر فريق آخر من العلماء نسخ القرآن بالسنة لأن السنة مبينة ولا يكون المبين ناسخاً ثم إن القرآن معجز والسنة غير معجزة . ولا ينسخ غير المعجز المعجز وقالوا : إن الوصية للوالدين والأقربين نسخت بآية المواريث .

(٣) كما فى آية : **(الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك)** النور : ٣ .

قال جماعة نسخت بقوله تعالى : **(وأنكحوا الأيامى منكم)** النور ٣٢ .

وقال جماعة منهم ابن عباس إنها محكمة ، وهو رأى ابن عباس والحسن البصرى .

الباب الثامن

في الخلاف العارض من قبل الإباحة

هذا النوع من الخلاف يعرض من قبل أشياء وسع الله فيها — عز وجل — على عباده ، وأباحها لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

كاختلاف الناس فى الأذان والتكبير على الجنائز ، وتكبير التشريق ، ووجوه القراءات السبع ، ونحو ذلك .

فهذه أسباب الخلاف الواقع بين الأمة قد نبهت عليها ، وأرشدت قارئ كتابى هذا إليها .

وهذا الكتاب وإن كان صغير الجِرْمِ يَسِير الحجم ، فإن فيه تنبيهاتٍ على أشياء جليلة يحسن مسمعها ، ويحلو من نفس الذكى موقعها ، وأنا أستغفر الله من زلل إن كان عرض وأسأله عونا على ما تعبد به وفرض ، لا رب غيره ، ولا معبود سواه .

تم جميع الكتاب بحمد الله وعَوْنه ،

وإحسانه ومَنِّه . وصلى الله على

محمد نبيه ، وأهله وسلم

تسليما ، وحسبنا الله

ونعم الوكيل .

فهرس الأحاديث النبوية

صفحة

القوافي



(ر)

(س)

(ض)

(ع)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

الأعلام

(أ)

(ب)

(ج)

(ح)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

أهم المصادر

أشعار الهذليين	دار العروبة	القاهرة
الأغانى	دار الفكر	بيروت
الأمالى الشجرية	مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية	حيدر أباد
البخارى	المطبعة العثمانية	القاهرة
بداية المجتهد – ابن رشد	الحلبى	»
تاريخ الفرق الإسلامية – على مصطفى –	صبيح	»
تاريخ بغداد – الخطيب البغدادى –	الخانجى	»
تاريخ المذاهب الإسلامية – أبو زهرة –	مطبعة المدنى	»
تذكرة الحفاظ – الذهبى –	دار إحياء التراث	بيروت
تكملة الصلة – ابن الأبار	مكتبة نشر الثقافة الإسلامية	القاهرة
تفسير ابن جرير الطبرى	دار المعارف	»
تفسير البحر المحيط – أبو حيان –	مطبعة النصر الحديثة	الرياض
تفسير القرطبى	دار الكتب	القاهرة
تفسير الكشاف – الزمخشرى	دار الكتاب العربى	بيروت
تهذيب التهذيب – ابن حجر	دار صادر	»
الحركة اللغوية فى الأندلس – البير حبيب –	المكتبة العصرية	»
الحيوان للجاحظ	الحلبى	القاهرة
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة–ابن حجر	دار الكتب الحديثة	»
الدرر اللوامع – الشنقيطى	دار المعرفة	بيروت
الديباج المذهب – ابن فرحون	مطبعة المعاهد	القاهرة
ديوان ابن الرومى	دار إحياء التراث	بيروت
ديوان الأعشى	دار الكاتب العربى	بيروت
ديوان امرئ القيس	دار المعارف	القاهرة
ديوان أوس بن حجر	دار صادر	بيروت
ديوان جرير	المطبعة العلمية	القاهرة
ديوان حسان بن ثابت	دار صادر	بيروت
ديوان حميد بن ثور	مطبعة الدار القومية	القاهرة
ديوان ذى الرمة مع شرح لأبى نصر الباهلى	مطبوعات المجمع اللغوى	دمشق

ديوان زهير	المطبعة الحميدية	بيروت
ديوان كثير عــزة	دار الثقافة	بيروت
ديوان لبيــد	دار صــادر	بيروت
ديوان النابغة	» »	»
زهر الآداب — الحصرى	المكتبة التجارية	القاهرة
سمط اللالئ — أبو عبيد البكرى	لجنة التأليف والترجمة والنشر	»
شرح الأعلم لديوان زهير	المكتبة التجارية	القاهرة
شرح الرضى على الكافية	مطبعة حجازى	»
شرح الحماسة للتبريزى	مطبعة التوفيق	»
شرح الشافية — الرضى —	مطبعة حجازى	»
شرح شواهد سيبويه للأعلم	مطبعة بولاق	»
شرح شواهد المغنى — السيوطى	مكتبة الحيــاة	بيروت
شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد	دار احياء الكتب العربية	القاهرة
الشعر والشعراء — ابن قتيبة —	مطبعة التقدم	»
الصــلة لابن بشكوال	مكتبة نشر الثقافة الإسلامية	»
ضحى الإسلام — أحمد أمين	دار الكتاب العربى	بيروت
طبقات الشافعية — السبكى —	المطبعة الحسينية	القاهرة
العقد الفريد — ابن عبد ربه —	مطبعة لجنة التأليف والترجمة	»
الفرق بين الفرق للبغدادى	مكتبة محمد صبيح	»
الفهرسة — ابن خير الأشبيلى	الخــانجى	»
قلائد العقيان — الفتح بن خاقان	المكتبة العتيقة	تونس
الكامل للمبرد	الحــلبى	القاهرة
كشف الخفاء — اسماعيل العجلونى	مكتبة التراث الإسلامى	حلب
كشف الظنون — حاجى خليفة	وكالة المعارف	استانبول
كنايات الجــرجانى	مطبعة السعادة	القاهرة
لســان العرب	صــادر	بيروت
مجالس ثعلب	دار المعارف	القاهرة
مجالس العلماء — الزجاجى	وزارة الإرشاد	الكويت
المحتسب لابن جنى	مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية	القاهرة
مختصر شواذ القراءات — ابن خالويه	المطبعة الرحمانية	»
مرآة الجنان — اليافعى	مؤسسة الأعلمى	بيروت
مســلم	المطبعة المصرية	القاهرة
مسند الإمام أحمد	دار المعارف	»
معجم البلدان — ياقوت	دار صادر	بيروت
المغنى — ابن هشام	دار الكاتب العربى	»

المقتضب للمبرد تحقيق الأستاذ محمد عضيمة	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية	القاهرة
مقالات الإسلاميين للأشعرى	مكتبة النهضة المصرية	»
الملل والنحـــل للشهرستانى	مكتبة صبيح	»
المنصف لابن جنى	الحـــلبى	»
النهاية لابن الأثير	مكتبة المعارف	بيروت
همع الهـوامع – السيوطى –	دار المعرفة	بيروت
وفيات الأعيان – ابن خلكان	مطبعة بولاق	القاهرة

الموضوعات

الباب الأول

صفحة

الباب الثانى

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

صفحة

الباب السادس

الباب السابع

صفحة

الباب الثامن

رقم الإيداع ٤٧٨٢ - ١٩٧٨

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ا شارع نشاطي - شبرا - القاهرة
تليفون ١ ٥٥٢٢١